

اصحفي الناس



دکنور ابراہیم عبید

إهداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قنري محمود حفني
جمهورية مصر العربية



العدد السابع

لصحفى الشار

الدكتور ابراهيم عبيد



في هذا الكتاب

في هذا الكتاب سيرة لصحفي نادر المثل في تاريخ الصحافة المصرية ، ولم يكن في المقنود نشر هذه السيرة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ذلك أن صاحبها كان سوط تاديبلييت محمد علي ، ومؤرخا دقيقا لفصائح العصر ومبازل القصر ..
ويمتاز يعقوب صنوع ، أو أبو نظارة كما عرف في التاريخ ، بأنه كان أول من أنشأ مسرحا في مصر ، وأول من أصدر صحيفة هزلية كاريكاتورية في الشرق قاصيه ودانيه ، وأول من أخرج مجلة بالألوان ، وأول من نفى من أصحاب الأقلام ، وأول من جاهد في سبيل مصر والسودان وكافح الاستعمار في كل مكان أربعة وثلاثين سنة وبطريقة لم يسبقه اليها انسان ..

وقد وفقت في أسفاري لأوروبا وأمريكا الى الحصول على مجموعته الصحفية « أبو نظارة أبو صفارة وأبوزمارة والحاوي » وغيرها من الصحف والمجلات كاملة لا ينقصها عدد ، فأصبح لدينا الجداول الاصيل لسيرة أستاذ من أعلام صحافتنا ، رأيت أن أترجم له في هذا الكتاب وأبسط بعض جوانبه الحافلة بالطرائف والعبر ..

فأقرأ معي في هذا الكتاب تاريخ المسرح وكيف تطور ، وتاريخ النكتة المصرية وما فيها من عمق وسخرية والكاريكاتير الخالق ، والألوان البديعة ، والدراسات الرائعة والأزجال اللاذعة ، وتصوير الحقائق وتفسير المسائل السياسية العليا منذ عهد اسماعيل الى مطلع القرن العشرين ..

وبعد ففي هذا الكتاب أعرض عليك صورة ممتعة للعناد الرائع المروع من أجل الفكرة والرأي السيد ، لترى نفسك في هذا الكاتب الحر الذي رجب بالنفي والتشريد أيام الخديو اسماعيل وأبى أن ينتظم في ركب الطواغيت أو يمضي في صفوف العبيد ، وبقي أربعة وثلاثين سنة صلبا على الشدائد ، قويا على المحن ، لا تنزعزع ثقته في وطنه أو مثله ، ولا تقف دون رسالته حواجز أو عقبات ، ولا تحول دون إعلان عقيدته مسدود أو قيود ..

ابراهيم عبده

أول ابريل سنة ١٩٥٥

روح العصر

كان روح العصر الذي نشأت فيه الصحافة الشعبية يدعو إلى لون جديد من الصحف التي لم تعرف من قبل في الشرق الأدنى ، ولم يكن من طبيعة الأشياء أن تصدر صحف ساخرة إلا في البلاد المصرية التي ولّى أمرها الحديو اسماعيل ، وأشاع بالآزمات التي خلقها كثيرا من الفكر الجديدة التي كانت منطوية في نفوس النخبة المنتقاة من أعلام الرأي الذين درسوا في مصر أو نهلوا من أوروبا . . .

ولّى اسماعيل الأريكة الحديوية ، فكان ضرورة لمصر بخبره وشهره ، فقد كان الزجل مغرما بالمظاهر معنيا بتقليد الأوروبيين ، يريد أن يأخذ حياة شعبه كما يأخذ ملوك أوروبا حياة شعوبهم واعتملت في نفسه تيارات مختلفة من القديم والجديد ، وتطاحن ارث الآباء والأجداد المنطوي على احتقار الشعب كبيره وصغيره ، مع فكرة التقليد الذي يرفع من قدر الوطن ويضع له في الحساب وزنا واعتبارا ، ودارت المعركة حامية الوطيس بين نفسية الحاكم الشرقي العتيقة وبين نفسية الأمير الذي يريد جديدا يماثل حياة الغرب المتحفز الوثاب .

وخرج اسماعيل من هذا الصراع العنيف يترنح من هول المعركة ، فلا هو غلى سجية الأسلاف ، ولا هو صورة من أمراء الغرب المحدثين ، كثير التردد ، يذهب مرة إلى أقصى اليمين ، ويذهب أخرى إلى أقصى اليسار ، فتجده يحتضن حيناً رجال المدرسة القديمة من الأتراك حتى أوغل عليه بذلك خونة الشعب وخصومه الطبيعيين ، ثم نراه حيناً آخر يفتح صدره لنخبة من الشبان المجتهدين الذين درسوا في أوروبا وهم من أبناء الفلاحين ، فأكبر بذلك الوطن والوطنيين ، وقجاة ينصرف عن الأتراك والمصريين ، فيجعل من بطانته وأصدقائه جماعة من الفرنجة . يستمع إليهم ويصغى إلى نصائحهم ويعمل بمشورتهم ، وإن خالفت نصيحتهم مصلحة البلادودينها ، وإن أساءت أيضاً إلى خزانة الدولة وأغرقت الأمير في الديون . . .

ومن الأدلة على هذا الاضطراب الفكرى الذى كان يعتل فى نفس اسماعيل ، موقفه من الصحافة والصحفيين ، وموقفه من التمثيل والممثلين . .

ولى اسماعيل الحكم قيدا يصلح من جريدة (الوقائع) صحيفة الدولة الرسمية حتى رفعها الى مقام الصحف « المتبعة » كما يقول ، ثم أنشأ الى جانبها صحفا شتى تصدرها الحكومة ولا تبخل عليها بالادوات الادبية والمادية ، فكانت لها صحف يعسوب الطب ، والجريدة العسكرية المصرية ، وجريدة أركان حرب الجيش المصرى ، ثم روضة المدارس صحيفة التلاميذ والمعلمين . فهذا الأمير الذى يصطنع حياة الأوروبيين وتفكيرهم يصدر الصحف على سبيل المحاكاة والتقليد ، ثم يذهب الى أبعد من صحف رسمية تخضع خضوعا شاملا لتوجيهه وإرادته فيأخذ بإصدار صحيفتي « وادى النيل وروضة الأنهار » وكتاتهما من الصحف الشعبية الأولى ، ولكنهما تخضعان لتوجيه الحكومة وتلقيان منها مقابل ذلك إعانة مالية مجزية ، وهى إعانة مستتخفة لا يعرفها عامة الناس أو خاصتهم ، حتى تبدو الصحيفتان حرتين لارقيب عليهما .

فإذا ظن بعض المجددين من الشبان المصريين أن اسماعيل ينهج نهج الغرب ، فيمنح لمن يشاء ترخيصا بإصدار صحف حرة ، تقدم من بينهم اثنان ، ونالا ترخيصا بإصدار صحيفة « نزهة الأفكار » وكتب فيها كما يكتب الأحرار ، فإذا هى مغلقة بأمر منه بعد صدور العدد الثانى .

وكذلك كان الشأن فى أمور التمثيل والممثلين ، كان يأذن للممثل أن يؤلف أو يترجم أو يعتل خشبة المسرح ، حتى إذا وجد أنه تجاوز المفهوم فى ذلك الزمان ، عصف به وحرمه مهنته أو نقاه . كما صنع مع صاحب هذا الكتاب الذى نترجم له ، وقد حال فعلا بين كثيرين من أبناء البلاد الشامية وبين الاستمرار فى التمثيل حين وجد منهم انحرافا فى إشارة أو عبارة . ولم يبق الا على المسارح الرسمية وفى مقعدها دار الأوبرا التى شهدت خيرة الفرق الأوروبية فى سنوات حكمه . ولم يكن من المحتمل أن تتجاوز الصحافة المصرية هذا المدى الذى رسمه لها اسماعيل ، غير أن الحوادث كانت أقوى منه .

بل الزمته الحوادث بأن يفزع هو الى الصحافة والصحفيين .
يستعين بها وبهم فيما جد على وطنه من أحداث ، الامر الذى
فرض عليه أن يفتح صدره للمصريين والشاميين ليتخذوا من
الصحافة مهنة لهم ، حتى ان المثليين الذين عجزوا عن أداء
رسالتهم التمثيلية لسبب أو آخر ، رحبوا بتلك الظروف ،
وانتقلوا الى الصحف منشئين لها أو محررين فيها .

كانت من أهم الاحداث التى فتحت ثغرة فى طبيعة الحاكم
الشرقى ، وفرضت عليه محاكاة الغرب محاكاة سليمة فى تكريم
الصحافة ، الحرب التى قامت بين الاتراك والروس ، وقد مست
الحرب حياة المصريين مسا شديدا ، بما كان يجب عليهم تقديمه
لسلطان الاتراك من عتاد ومال ورجال ، وأراد اسماعيل أن
يتهرب من أداء هذه الالتزامات التى فرضتها الفرمانات المختلفة ،
فجمع مجلس نوابه ، وعرض عليه العجز المالى ، فأقره بالطبوع
على وجهة نظره ، وفى هذا اعلان رسمى عن قصر يد الحكومة
المصرية فى القيام بالواجب المفروض عليها فى محنة أمير المؤمنين
وسلطان العثمانيين .



ثم كان اسماعيل يرى
فى اشتباك الدولة العلية فى
حرب قاسية مع الروس
فرصة لتوسيع سلطانه ،
ولا يمكن أن يتم توسيع
سلطانه الا اذا تهيأ رأى
العام الاوروبى وتهيأ رأى
العام المصرى لقبول هذه
الفكرة بكشف نواحي
الضعف فى دولة الرجل
المريض ، وذلك بذكر
مساوىء الاتراك على
صفحات الجرائد والمجلات
ونشر مقاسد الحكم فى
القسطنطينية وابالاتها فى
الشرق والغرب على السواء

الحديث اسماعيل او شيخ الحارة : ٠٠

وكانت تلك الحرب مفترق الطرق في رسالة الصحافة
والصحفيين . .

فقد نشأت عدة صحف ، القليل النادر منها وقف الى جانب
السلطان ، والكثير القادر فيها كان حربا عوانا على مفاسد الاتراك
وهل اسماعيل لهذه الحرية التي نالتها الصحف ، والتي كشفت
بمقتضاها عن مواطن الضعف في الدولة العثمانية ، ولم يفتن
الى أن حرية الصحافة مكنت للصحف وهي تتناول قصة الحرب
وأسيابها من أن تملن عن مبادئ الملك في دولته وهي تقارن بين
الدول الغربية الحرة وبين دولة الخليفة المريضة وما يدور في
فلكها من دويلات ، ولم يطل الزمن حتى سفرت الصحف المصرية
ورفعت النقاب ، وحاجمت في عنف وشدة حاشية الخديو وبه
المبسوطة من غير حساب ، وتدخل الاجنبي في مقدرات البلاد ،
وسلطة الحاكم المستبد الذي أفسد طبائع الناس ومد للرشى
والظلم والعدوان .

وجاءت المصادفة برجل أشعل في النفوس لهيب الثورة بما
نشرته له الصحف من مقالات ، وبما ألقاه على الصفوة في المناظر
والبيوت من الآراء والافكار ، وكان هذا الرجل شعلة متحركة
في بلاد الشرق جميعا ، واحتفلت به مصر احتفالا منقطع النظير ،
واستطاع في الفترة الوجيزة التي قضاها في البلاد أن يكسب
اكبار العلماء والفضلاء ، ويكسب رجال السياسة والحكم ،
وينشئ مدرسة من الصحفيين والادباء .

كان السيد جمال الدين الأفغاني ومضة برقت في حياة
خاصة المصريين لم ينطفىء نورها قط ، فقد استمر هذا النور
في تلاميذه جيلا بعد جيل ، وان كان توفيق قد استطاع أن
يقصيه عن البلاد حين ولى أمور الحكم ، وكان في عهد أبيه -
وهو ولى للعهد - من أشد أنصار الشيخ وأكثر رجالات مصر
اعجابا به وبما نقله الى البلاد من تيارات فكرية بقيت على مدى
السنين . .

كان جمال الدين الأفغاني يرحب بالمثليين والصحفيين أيضا
ترحيب ، فقد كانت هاتان الفئتان في مقدمة من استعان بهم
على إشاعة ما يريه مصر من تقدم وانتباه فكان يكتب للصحف
ويسمى لأصحابها عند الحكومة لتمنحهم تراخيص الصدور ،

وكان يستمع الى الروايات التي يجمع البعض تمثيلها ، وكانت ندوات الادب والفن تستيقظ في بيته منذ الصباح الباكر وتمضي الى ساعة متأخرة من الليل ، وكان يؤثر جماعة خاصة من اهل الفن والادب بالحب والمطف والتقدير ..

وكان من بين من آثرهم بالود والتأييد يعقوب بن صنوع صاحب هذه الترجمة فقد كان له موجهها على نحو ماسنقرا في هذا الكتاب . .

فروح العصر كانت تقترض فيما تقترض من جديد أن تكون في مصر صحافة لم تعرفها من قبل ، ولم يكن الجديد ، تلك الصحف الشعبية الحرة التي أصدرها جماعة من الاحرار ، فقد عرفت تركيا وبعض بلاد الشرق العربي هذه الصحف ، بيد أن الجديد حقا ما جاء به أبو نظارة في صحيفته الخالدة على التاريخ ، وهي صحيفة كان فيها للمؤانسة والطرائف والفكاهات والرسوم مكان الصدارة ، ولم يكن في صحيفة أخرى شيء من هذا لبعده سنين ، فأصبح ما جاء فيها من حكايات ومحاورات وصور حدثا لم يعرف له نظير في الشرق من قريب أو بعيد .

ولامت (أبو نظارة) طبع صاحبها ، بل لامت طبع العصر نفسه ، وقد جاءت في زمن تعددت فيه ألوان الحياة وتباينت غرائبها وأصبحت سجلا لها يرويها على طريقة كاتبنا الساخرة ، وكانت صحيفتنا نعم السجل لتلك الحياة التي رقت ولانت ، وماعت في بعض الاحيان !

أنظر كيف أخذ الناس حياتهم اليومية في عصر اسماعيل .

انك لتدخل بيوت الامراء والعظماء والافغنياء فتسمع الى الموسيقى والافغانى ، وتسمع توقيع نسائهم على البيانو أو أناشيد بناتهم في (مقابلات) الصديقات والقريبات ..

وانك لتدخل بيوت السادة القادرين فتجد أكثر من مجلة أجنبية لتتجمل والازياء ، وتسمع حديثا باللغة الفرنسية بين سيدات البيت وأنساقه ، وتكاد تنكر أنك في بيت شرقي وأنت تنصت الى الموسيقى أو الى الحديث أو تشاهد ربة البيت وبناتها جالسات الى لوحات الرسم تقضين امامها وجه النهار ..

وانك لتدخل بيوت الموسرين فتجد الموائد قد أعلمت على الطريقة الفرنسية ، أو تجد الضخب يملا فراغ اصحاب البيت ،

فقد كانت بيوت القوم متدييات للسمر العسايت في كثير من الليالي ، وللرقص الخليع حتى الصباح ، وكان للخمر وغير الخمر مكان في سمر الرجال بل في سمر النساء بين آن وآن .. وانك لتسمع الناس يحدثونك عن مباحج القصر الخديوى وما شهدوه من حفلات (الباللو) كما تقول صحف ذلك العهد ، ويروى لك عامة الناس قبل خاصتهم ما دار في تلك الحفلات من ألوان الرقص الفرنجي . كما تنصت اليهم وهم يتسندرون بملابس النساء والرجال ، ويحكون لك عن الشراب والطعام ، وما يصحب الشراب والطعام من موسيقى صاخبة أو حاملة ، ويرتبون على ذلك كله أشياء وأشياء ..

وانك لتقرأ في الصحف المعاصرة وفي مقدماتها الوقائع الرسمية ، وصفا ممتعا لسباق الخيل ، وهو السباق الذى كان يشارك فيه الخديو ووزراؤه وأعيان البلاد ، وينهج نهجهم الفقراء من العامة ، حتى اختلفت موازينهم بالمراهنة والمقامرة ، وما ترتب عليهما من فساد الحال وسوء المثال وذل السؤال ..

وانك لتذهب الى قهوات الفرنجة أو الى قهوات أبناء البلد فتجد السمار جلوسا فيها ، قل منهم من ينصرف الى صحيفة القهوة فيقرأها ، وكثر منهم من يلعب النرد أو الورق ، وكثر منهم أيضا من يحكى النوادر أو يروى الحكايات فيضحك المستمعون حتى يستلقوا على أقفيتهم ، ويتنقلوا بها من مكان الى مكان ، وبذلك طفع قاموس النكات المصرية باروع ما أثر عن المصريين من نكات ، واحتفظ لهم المصر بالصدارة فى التنبكيت والتبكيك على أنفسهم وعلى غيرهم من المواطنين ، بل على غيرهم من شعوب الأرض قاطبة ، وبذلك أصبحت القهوة المصرية فى أيام اسماعيل ندوة للرواية والحكاية والنكتة ، ومكانا يخف اليه كل مفتن وأديب ..

كان روح العصر يفرض على صاحب الترجمة أن يصيدير صحيفته ، فكل شيء فى مصر جديد .. ارتفعت طوايق المنازل ، وأثيرت الشوارع ، وأبيحت الخمر فى كثير من الأحياء التى ماكان يستطيع أن يشرب الخمر فيها مواطن من المسلمين أو المسيحيين ، وجرت العربات بخيولها المطهمة فى الشوارع والميادين المرصوفة . وانتشرت دور التمثيل وفى مقدماتها دار

الأوبرا الحديوية . وخفت العذارى الى الحدائق العامة في جنح
الليل أو في وضح النهار ، وصفت العربات في أطراف المدينة
تزخر بما يندى له الجبين . . .

كل ذلك كان في حاجة الى مؤرخ أو أديب ، وكان ابن صنوع
هذا المؤرخ وذاك الأديب ، وإن اختلف الناس في شأنه ، فقليل
أنه صحفي ، وقيل أنه ممثل ، واختصم مؤرخوه فيما كانت عليه
طبيعته ، أكان صحفيا أم كان مؤرخا وأديبا أم كان ممثلا بعينه
الصيت ؟ . . .

وفي تمثيلياته ، مؤلفة ومعربة ، تبين قدرة الممثل وتبرز ملكة
النقد وتظهر شخصية الفنان المفتن . . .

وفي صحفه تروى الحقائق طليعة يعقوب بن صنوع ، الأديب
الشاعر النائر ، والصحفي القارح الساخر ، وإمام الصحافة
الفكاهية غير منازع . . .



سراج الطفولة

هذه قصة الفنان المفتن يعقوب بن صنوع ، الفنان الذي خلق في بيئته وجيله مالم يعرفه من قبل جيله وبيئته ، نروى تلك القصة منذ ولدت سنة ١٨٣٩ الى أن قضى صاحبها في مطالع القرن العشرين ..

هي قصة اليهودى المسلم الذى قرن بين دينين ، لقد حملت فيه أمه اليهودية ، وولدت مسلما ، هبة منها للإسلام والمسلمين واصفاء منها لوحى فى قلبها ، وتلبية لتعاليم العراف الذى أنبأها بالخبر اليقين ..

حقا ان مولد يعقوب يشبه سيرته الحافلة بامتاع ما أثر عن سيرة صحفي فى تاريخ القرن التاسع عشر ..
ان قصة مولده يرويها صاحبها فى ذكرياته التى كتبها عن تاريخه بخط يده ، وأخذنا على عاتقنا اذاعتها وتحقيق ما فيها من بيانات جانبت الصواب فى كثير من الحوادث والتفاصيل ، غير أنها قصة ممتعة ، ماكان لأحد أن يعرف دقائقها لولا أن صاحبها كتبها فى ساعات من التجلى ، ولم تسعفه تلك الساعات ليواصل كتابة هذا التاريخ الجميل فوقف به عند نفسه الى باريس ..

كان الولد الوحيد لأمه وأبيه ، لم يرزقهما الله غيره من البنين ، وقد وارىا قبل مولده أربعة أطفال لم يروا نور الحياة الأسابيع ثم مضوا الى سجوار ربهم مخلفين الحسرة فى قلب الوالدين اللذين كانا ينتشدان طفلا يخفف من غصة الحياة ، وما أصعب الحياة على والدين يفقدان فى كل سنة وليدا بعد قليل من ولادته المحسرة ! ..

يذكر يعقوب بن صنوع أنه مات لأمه أربعة أطفال ، فأذآب هو فى أحشائها نصحت لها صديقاتها أن تفرغ الى شيخ مسجده الشعراى فعنده التمام والتعاويد ، وعنده المحصنات ضد موت الأطفال ! وفيه من الصفات الطيبة ما يقربه الى الله ، فإذا استجار

به من أجلها ، قبل شفاعته وأبقى على جنينها وحفظ له الحياة
الى أمد طويل ! ..

وان الأم الحزينة لتفرغ الى شيخ مسجد الشعرائي ، وهو
وجل وقور شارف على المائة ، فيه صلاح وتقوى ، ترجوه أن
يتوسل الى الله أن يحفظ لها جنينها ويبقيه قرة لعين والديه ،
وقال الشيخ الوقور وكأنه يكشف عن الغيب البعيد « ان ربنا
سيبارك ثمرة أحضانك وسترزقني بولد » وكادت الأم تفقد من
الفرح اتزانها ، فان الله سيبقي على جنينها ! وهو ولد ! وما أسعد
أمهات ذلك الزمان حين يكون في بطونهن ولد ، فان ذلك يكبر
من مقامهن عند أزواجهن ويعلنهن عن المسرة التي تشعر بها
كل أم تنجب بنتا ! غير أن الشيخ الوقور يستكمل نبوءته بقوله
« وان نذرته للدفاع عن الاسلام فلسوف يعيش ، اكسه من
حسنات المؤمنين ليكون متواضعا ، ولسوف يجد ما يريد بفضل
بركة خالقه » !

وأصغت أم يعقوب الى نصيحة الشيخ واطاعت ما أمرها به
وأمهرها زوجها على أن يهب ابنه للاسلام والمسلمين . غير أنه
اعترض في أول الأمر على فكرة كساء الطفل المرتقب من حسنات
المحسنين ، واعتبر في ذلك مهانة لا تليق به . وهو يتمتع
بالحظوة لدى البلاط ويستشير الأمراء في مسائلهم الخاصة ،
غير أن الزوجة أصرت على أن تلبى نصيحة شيخ الضريع بحذفها
لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور . .

ويذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته
على أن يوفى نذرهما وأن يجند نفسه لخدمة الاسلام والمسلمين ،
ويحكى لنا عن مولده فيقول « وما أن فتحت عيني لأرى نور
الحياة حينما وصلت الى وادي النموع حتى انزلت من بين يدي
المولدة التي كانت في استقبالي . وظللت ثلاثة أيام بين الحياة
والموت دون أن يعرفوا أن رأسى قد شج ، ولكن كان مكتوبا على
أن أعيش لأزدي رسالة مقدسة ألا وهي مكافحة الأباطيل التي
تفرق بين المسلمين والمسيحيين ، باظهار سماحة القرآن وحكمة
الانجيل ، وهكذا تتسنى لي الملازمة بين قلوب الفريقين » .

ومن الطريف أن يعقوب بن صنوع لم يشر قط في تاريخه الى
أنه ولد من أبوين يهوديين ، مع أن جميع الكتب وكل من ذكره

عابرا أو محققا أكد هذه الحقيقة التي ينطق بها لقب الأسرة .
وتنطق بها معالم وجهه اليهودى الاصيل ، وخاصة عينيه .
وفيها من نظرات اليهود الشئ الكثير ، وان كان قد رد ما فيها
الى الرمد الذى أصابه وهو صغير ، وبقي يلزمه مدى حياته
لافتقار أبويه طبيبا اخصائيا يعالج ما أصاب عينى ولدها من
هذا الداء الثقيل ، غير أن صحفيا أجنبيا زار مصر وكتب بعد
عودته فى سنة ١٨٧٩ عن يعقوب ابن صنوع فصلا ممتعا أنبأنا
فيه عن مرض عينيه ، وحلل المرض وهو يحكى لنا عن المترجم
له بقوله « . . . ومن البدهة بكان أنه استاذ من قمة رأسه
الى أخمص قدميه . ومن أخمص قدميه الى قمة رأسه ، فلنتخيل
رجلا ريع القامة أصلع نوعا الا من يضع شعرات سوداء متناثرة ،
وهي من السواد الخاص الجميل الذى يميز الجنس الاسرائيل .
انه مصاب بنوع من الرمد أو بالأحرى بشئ من الضخامة فى
العينين ناشئة فيما يظن من توهج الرمال فى فلسطين ، وقد
انتقل اليه اثر هذا التوهج بطريق الوراثة من جيل الى جيل » .
ثم يستطرد الصحفى متحدثا عن المفارقات فى (يهودية)
يعقوب بقوله « وكثيرا ما سمعت حولى العبارة الآتية : ان فى
عينى يعقوب صنوع ذاك اللهب الوهاج الذى نراه فى عينى
البارون جيمس روتشيلد وهى الصفة الوحيدة التى تجمع
بينهما . . »

« لقد أصابوا كبد الحقيقة ، ذلك لأن يعقوب صنوع لم يتسم
بأية صفة من صفات رجال المال . فمزاجه نائر على الأرقام
والتشكيلات الحسابية الى أبعد مدى بل ان الخلاف مستحکم
الحلقات بينه وبين علم الحساب منذ نعومة أظفاره . . »
هذا رأى الصحفى فى كاتبنا العظيم ، وقد أخطاه التوفيق
فى تقدير كفاية المترجم له فى شئون المال والحساب ، وان
كفاحه وصلاته فيما بعد برجال الحكم والمال لدليل على أن كثيرا
من صفات آل اسرائيل لا يزال لها مكانها المقدور فى نفسية
الكاتب الأديب ! . . »

حقا ان المترجم له لم يقم وزنا لمفريات الحديو اسماعيل حين
فرر مخلصه ، ومضى فى هذه الحصومة الى نهاية الشوط ،
ولم يقف خصومته عند اسماعيل الحديو الذى نفاه بل مضى

يجاهد ابنه الحديو توفيق ، ويكافح معه أنصاره من الوزراء ورجال الاحتلال ، وكان في مقدوره أن يحصل على المال الوفير اذا مشى في الركب وانتظم في صف المناقبين وطلاب المصالح ، الا أن هذا كله لاينفي أن عامل الورثة أهله للكفاح المادي ، فانتصر في باريس ، وحصل على المال اللازم الذي مكنه من تخليد اسمه في التاريخ ..

ثم نصفي الى صاحب التاريخ يروي تاريخه فيقول « وحين بلغت الثانية عشرة من عمري كنت أقرأ التوراة بالعبرية والانجيل بالانجليزية والقرآن بالعربية وأفهمها تماما . وكان أول شعر نظمته باللغة العربية مديحا لناظر المدرسة الذي كان يعاقب التلاميذ الذين دأبوا على الضحك مني بسبب عيني المحترتين . وقد تلوت هذا الشعر على والدي ، وكان يقرض الشعر ، فبصرني بأخطائي فيما نظمت ونصحني أن أصيغ قصيدة في مدح الأمير أحمد حفيد محمد علي ، فكتبت قصيدة طويلة قدمها والدي للأمير الذي لم يصدق أن صبيا في سن الثالثة عشرة يستطيع أن يكتب هذه الأشعار التي - بيني وبينك - ! لم تكن جيدة ، وقال لا يبي أنه يريد أن يرى هذا الطفل ذا الذكاء الحارق » ..

وتم لقاء يعقوب بالأمير . وكان أبوه قد أوصاه حين يحظى بهذا اللقاء أن يتقدم فيقبل يد الأمير باحترام وتوقير ، وفي هذا اللقاء تكشف طبعة الصبي الثائر على الأوضاع والتقاليد ، وهو يرويها لنا في بساطة ووضوح لا يشكك في صحة معطليها ، ومستقبل جهاده ينبيء عن جوانب الصديق فيما حكاه عنها « لقد كانت قاعة الاستقبال غاصة بالزائرين عندما دخلت وقدمني والدي الى الأمير وهو يقول : هذا هو الشاعر الصغير الذي يطلب شرف لثم يديكم أما أنا فقد حييته بتلك العبارة البسيطة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فنهرني أبي بعنف وقال لي بصوت خفيض « قبل يده أيها التعس » فأجبت : لا ، لن أقبلها ، فما كان من والدي الا أن هددني ولكنني تماديت في الرفض » ..

ويذكر الصبي الصغير أن الأمير لاحظ هذا اللفظ الذي شغل الابن وأباه فاستوضح الوالد أسبابه غير أن يعقوبا سبق أباه

الى جواب حازم في كبرياء ملحوظه ، وتوجه الى الامير قائلا
« لا أدري لماذا يريد والدي مني أن أقبل يدكم الملكية . هل أنت
امام أو قسيس أو حاخام ؟ لا اني انسان مثلك ، لا بل أنا أعرف
قرض الشعر وأنت لاتعرفه » .

ويعلق المترجم له على ذلك بأن هذه الكلمات وان نزلت على
أبيه نزول الصاعقة الا أنها كانت مفرقا من مفارق الطرق التي
صادفت حياته . فان الامير الذكي بدت عليه علامات السرور
« فهتأني وأرسلني على نفقته لأتلقى العلم في أوروبا » ثم يمضي
يعقوب فيقول انه أمضى عدة سنوات في أوروبا فلما عاد نزل
فضاء الله في الامير الكريم الذي أولاه « نعمته » وفي أبيه أيضا ،
فوجد نفسه رب أسرة ، ليس له مال يغنيه وان كان له علم تام
بلغات أربع ، كانت هي كل رأس ماله الذي تقدم به الى إحدى
المدارس الحرة التي قبلته مدرسا بها ، وهكذا أقام أوده بما تدره
عليه المدرسة من أجر ، ووجد وقتا طيبا للتمكن من اللغات التي

بعرفها وأضاف إليها أخرى
حتى أنه استطاع حين بلغ الخامسة
والعشرين أن يجيد ثمانى لغات
كتابة وحديثا بل تمكن منها الى
حد اجادة قرض الشعر بها
جميعا .



ويؤكد الصحفي الانجليزي
المشار اليه في أول حديثنا أن
(أبو نظارة) كان يجيد في
سنة ١٨٧٩ « العبرية والعربية
والتركية والانجليزية والفرنسية
والايطالية والالمانية والبرتغالية
والاسبانية والمجرية والروسية
والبولونية » وفي قول هذا
الصحفي الرحالة الذي ربطته

الصلات بالمترجم له ما يؤكده صحة
البيانات التي ذكرها يعقوب في
المخطوط الذي سجل فيه
لباس يعقوب بن صنوع حين كان يخطب
في أوروبا او يحضر حفلة رسمية

تاريخه . بل زاد الرحالة على ما ذكره أبو نظارة أربع لغات أخرى يبدو أنه في سنة ١٨٧٩ لم يكن قد حصلها أو أجادها اجادة تامة ، على أن صحف يعقوب التي أصدرها في باريس أكلت مذهب اليه المترجم له والصحفي كلاهما بما احتوت عليه بعض نسخها من لغات مختلفة بلغ عددها عشرة أو يزيد ..

ويصف محرر جريدة « ستر دي ريفيو » طرائق العيش التي اتبعها أبو نظارة فيقول انه « كان يتنقل من قصر الى قصر ومن خان الى آخر ليعلم أبناء الحديو والباشوات من صبيان وبنات اللغات والرسم والموسيقى ، ولا أستطيع أن أجزم بأن يعقوب صنوع لم يكن أستاذا في علم الرقص .. فانه قادر على كل شيء اذا ما عزف بصفارته » .. ويذكر أبو نظارة من البيانات ما يؤكد أقوال المحرر المذكور ويزيدها تفصيلا فيروي أن بعض الشخصيات المدنية والعسكرية التي كانت تحكم مصر في أواخر القرن التاسع عشر تلقت عنه دروسا خاصة او تعلمت عليه في المدارس الحرة أو الأميرية ، فانه أمضى بضع سنين مدرسا أول في المهندسخانة وعضوا في لجنة امتحان المدارس الأميرية ..

ويحكى يعقوب في تاريخه صلته بالحديو اسماعيل : فيذكر أنه أعجب به قبيلا ولايته للحكم ففسد ظن أنه سيكون علما على المدنية والحرة ، فلما تربع على كرسى الحديوية مدحه في قصيدة عصماء ..

وينتقل يعقوب من التحدث عن الحديو وعلاقته به الى المجهود الذي بذله لتعريف الغرب بأداب اللغة العربية والدراسات الاسلامية فترجم قصائد من لغة الضاد الى اللغة الإيطالية ، ثم نشر دراسات عميقة من الآداب الاسلامية في الجرائد الانجليزية ثم يقول « وبينما كنت أطرق الحضارة الأوروبية في جرائد الشرق ، كنت أكشف في الصحف الأوروبية عن جمال الشعر العربي وعمقه » ثم انصرف أبو نظارة الى تأليف التمثيليات باللغة الإيطالية فكتب ثلاثا منها عن العادات المصرية لقيت نجاحا كبيرا على المسارح الإيطالية في الشرق ، بل لقيت النجاح في بلاد دانتي نفسها ..

الفنان المفتن

فص علينا أبو نضارة كيف ولد وكيف ازدلف الى بيوت العظماء ينشر فيها ألوانا من الفنون الرفيعة ، وبين لنا أنه كتب شعرا ونثرا في الصحف السيارة وأعلن فيما كتب عن حضارة الشرق ودين الاسلام ، وخلق له مدرسة من المدنيين والعسكريين الذين كان لهم في تاريخ مصر - فيما بعد - تاريخ ثم أخذ ينشئ التمثيليات ليشتبع بها نفسه المطبوعة على الحكاية والرواية والنقد المباح ، وكان نجاح تمثيلياته الايطالية الثلاث حافزا على المضى فيما أهله له طبعه ، فعزم على أن يقيم مسرحا فوميا مصريا ، وهو عمل فنى لم يسبقه اليه أحد في مصر .. ولم يكن انشاء مسرح مشروعا سهلا للتنفيذ ، ولكنه توكل حين عزم متشجعا بما يبدية الحديو اسماعيل نحو تأييد المسارح الفرنجية وفي مقدمتها الاوبرا الايطالية والكوميدي فرانسيز ، وهما مسرحان جميلان بالقاهرة ..

كان ذلك فى سنة ١٨٦٩ حين فكر يعقوب فى تأسيس مسرح للوطنيين تعرض على خشبته تمثيليات عربية ، وكان ذلك حدثا جديدا وابتكارا غريبا ، فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام نظارة أو متفرجين ، ويقول المترجم له « فألفت حينئذ فودفيل قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحيننا شعبييا » ، وقد مثل تلك الفودفيل « فى القصر أمام باشوات وشجعوه على أن يعرضها فى حديقة الأوبكية وكانت مشهورة بمسرحها القائم فى الهواء الطلق ..

وتوكل يعقوب - كما يقول - وقرر انشاء فرقة تمثيلية ، واستغرق ذلك أسبوعين تمكن خلالها من تكوين تلك الفرقة من بعض تلاميذه الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والعشرين ، وهم جميعا من الذكور .. وتخصص واحد منهم فى تمثيل أدوار النساء .. ثم أقيمت الحفلة الأولى وحضرها رجال البلاط والوزراء ، وأقبل معهم أكثر من ثلاثة آلاف مشاهد بين أوروبى مقيم ووطنى أصيل ليشاهدوا هذه البدعة الجديدة

٠٠٠ تمثيلية باللغة العربية ٠٠١

ويؤرخ لنا أبو نظارة فيما يرويه عن فرقته سيرة المسرح المصرى الأولى، وهى سيرة لا يعرفها المصريون . ومن حسن طالع هذا التاريخ أن صاحبه عنى بتفاصيله وأتاح لنا أن نقف على كثير من أخباره المستخفية ، والتي لم يذكرها مؤرخ من المؤرخين ، وهو يحدثنا عن الفرقة التمثيلية العربية الأولى حديثا شائقا فيذكر أن الممثلين الشباب حفظوا أدوارهم عن ظهر قلب ولكنهم كانوا يرتعدون خوفا قبل رفع الستار « فرأى استاذهم - أبو نظارة - أن يشجعهم ، فوقف على خشبة المسرح وحوله الممثلون وتحدث الى النظارة ليعطيهم فكرة عن الفن المسرحى ، وأخذ يقدم أفراد الفرقة للجمهور ، وطلب منه أن يفض الطرف عن الهفوات أو العجز عن التبريز، على اعتبار أنها التجربة الأولى التى تقوم بها أول فرقة تمثيلية عربية فى وادى النيل وبمضى قائلا : « ثم ألقيت خطابا عن فوائد ومباهج المسرح وختمت كلمتى بمدح الحديو » ٠٠

وقد أعادت تلك الخطبة الثقة الى قلوب الممثلين فأدوا أدوارهم كما لو كانوا أهل خبرة ومن أعلام الممثلين ، ويذكر يعقوب أن « سرور وحماس الناس فى ذلك اليوم لا يوصفان ، فقد طلبوا إعادة ثلاثى مناظر الفودفيل وحملونى على اكتافهم . وبسكيت لأول مرة من الفرع » ٠٠

خلق يعقوب بن صنوع بفرقته فكرة المسرح العربى فى مصر الحديثة ، وهى فكرة لم يسبقه إليها أحد من المصريين أو الشاميين الذين نزحوا الى مصر بعد ذلك واتخذوا من التمثيل مهنة وحرفة غير أن المترجم له لم يرض أن تعيش فرقته عيالا على تلاميذه ، غير مستكملة أدوات الفرق الجديرة بهذا الاسم ، وقد استطاع أن يؤلف فرقة مخترفة ضمت العنصر النسائى ليقوم بالتمثيل بدلا من الرجال المتنكرين فى ثياب النساء ! ٠٠ فمثر على فتاتين فقيرتين ، وتمكن من تعليمهما بنفسه القراءة فى شهر واحد ، ومرتجما على التمثيل فأديا أول الأمر أدوارا قصيرة خصصها لهما فى تمثيلاته ، وساعدهما على النجاح شباب نضر ووجه جميل وخفر نادر فى ذلك الزمان ، وقد كان لظهورهما على المسرح أحسن الأثر فى نفس الجمهور الذى استقبلهما بالتشجيع

والتأييد وأحاطتهما بالرعاية المحوطة فى اقباله على كل تمثيلية
لهما فيها نصيب ..

ويجب أن يدخل فى اعتبار من يؤرخ للتمثيل العربى اثر
البيئة فى التوجيه وفى النجاح أو الاخفاق ، فقد كان انشاء
مسرح عربى فى عهد اسماعيل مجازفة يتعرض فيها صاحبها
لتزمت المتزمتين وخصومة الرجعيين ومحاربي البدع ، وما أعجبها
من بدعة تصرف الناس عن العمل الصالح فى عرفهم ! . وتبيح
وقوف الانثى الى جانب رجل تطارحه علانيه الغرام أو يطارحها
الحب والهيام ! . لذلك يعتبر نجاح يعقوب فى مسرحه انتصارا
رائعا للفن وهزيمة مروعة لأهل الرجعة وهم كثيرون ..

ويقص أبو نظارة مدارج النصر التى نالها فى عمله ، فيذكر
أن مسرحه ظل يعمل سنتين عرض فيهما على خشبته اثنتين
وثلاثين تمثيلية من تأليفه ، منها الملهاة ذات الفصل الواحد
والمأساة ذات الفصول الخمسة ، الى جانب كثير من التمثيليات
التي ترجمت عن الفرنسية ، ثم يقول « وبعد مضي أربعة أشهر
على تأسيس مسرحى ، دعانى الحديو اسماعيل وفرقتى لأتمثل
على مسرحه الخاص فى القصر ، وقد مثلت ثلاث روايات وهى :
« آنسة على الموضة » و « غندور مصر » و « الضرتان » وكانت
كلها من نوع الملهاة الاخلاقية ، وبعد أن شاهد الملهاة الاولى
والثانية استدعانى وقال لى أمام وزرائه ورجال حاشيته :
« أنت موليرنا وسيخلد اسمك » بيد أنه عندما شاهد التمثيلية
الثالثة « الضرتان » وكانت تعلن عن مساوىء تعدد الزوجات ،
وانه بسبب التصدع الذى يحدث فى الأسرات بل بسبب الجرائم
التي تغشاهما ، تحول سروره الى غضب وأرسل يطلبنى قائلا
بلهجة تهكمية « سيدى مولير مصر ، ان كانت كليتك لا احتملان
ارضاء أكثر من امرأة واحدة فلا تجعل الغير يفعل مثلك ! » ..
وقد وجد رجال الحاشية كلام سيدهم فى محله فنصحونى بأن
أشطب هذه التمثيلية من قائمتى على الرغم من تقديمى اياها
للجمهور ثلاثا وخمسين مرة ، ولكننى اضطررت الى الرضوخ
إبقاه على حياة مسرحى » ..

كانت لفتات اسماعيل عاملا قويا من عوامل نجاح مسرح
يعقوب بن صنوع ، فقد كان لقب « مولير مصر » الذى خلعه

عليه . يتنبه من قريب براءة رتبة عاليه منحها له الخديو الكبير
وكان للرتب فعل السحر فى نفوس عامة الناس وخاصتهم ،
لذلك تجنب أبو نظارة غضب الأمير وأسقط من حسابه تمثيلية
« الضرتان » ومضى قدما فى مسرحه موضع تقدير الرواد من كل
طبقات الشعب ..



وبعد أكثر من مائتى
عرض لمسرحياته طلب منه
اسماعيل أن يمثل ثلاث
قطع فى حفلة ساهرة
كبيرة ، وقد نال اعجاب
الحاضرين وعلى رأسهم
الخديو الذى صفق له ، غير
أن كبار الجالية الانجليزية
الذين حضروا السهرة
لاحظوا السخرية اللاذعة
التي أطلقها كبير الممثلين
على جون بول وهو يؤدى
دوره على المسرح ، فحفظوها
له ومضوا بالدس عند
الأمير حتى أقنعوه عن
طريقهم المباشر أو عن طريق
صنائعهم فى القصر بأن
التمثيليات التي يقدمها
أبو نظارة تتضمن تلميحات
وايماءات خفية ضد

منشئ المسرح يعقوب بن صنوع وهو
فى القاهرة ..

سياسيته وسياسة الحكومة ، وفيها خطر عاجل على
نظام الحكم ومقدرات البلاد ، فأمر اسماعيل باغلاق المسرح ،
وبدأ منذ ذلك العهد اضطهاد يعقوب بن صنوع ..
ويؤرخ معاصرو (أبو نظارة) لتمثيلياته وأهدافها ، وللدور
الطبعي الذى أعد نفسه له ، فيذكرون أنه أنشأ المسرح العربي
ليعبر به عما يختلج فى أعماق نفسه من انفعالات ، فأضحك
الناس حين طرب قلبه ، وأبكاهم حين سالت دموعه الصادقة على

وجنتيه . وكانت ملاحظاته لازعة وبعض مرحة ساخرا . وكان حين تنبض نفسه بالآلم لما يراه من حياة مواطنيه البائسين الشاكين ، يتقمص في جسده جنسه الذي لا يحاكيه جنس في العالم ، والذي تحمل في ماضيه الطويل مختلف الاعتداءات واجتاز شتى العقبات والاضطهادات . ولكنه استطاع أن يعيش رغم ذلك وأن يحتفظ بكيانه دون تغيير أو تبديل « .. ويمثل ذلك كله على خشبة المسرح ، فيعلن عن مواطنيه ومثلهم ، ويحكى أما لهم وآلامهم ، حتى رأَت الحكومة أن ضحكاته مثيرة للغواطر ودموعه مهيجة للأفكار ، فأغلقت مسرحه . وظنت أنها قد حبست لسان الرجل من أن ينطلق على خشبة المسرح . ونسيت أن له قلما سينطلق بعد قليل على مسرح الحياة ..

وقبل أن نسدل الستار على قصة الممثل الكبير نتركه يحدثنا عن الطرائف التي صادفته في أثناء عمله المسرحي ، فهي ، وإن تكن تفككة لقارئها ، إلا أنها عند المؤرخ شيء جدير بالتسجيل وهو يروي سيرة المسرح المصري ، حتى يلاحظ المختصون على ضوئها التطورات التي حدثت لهذا الفن في بلادنا ، ويزنوا المجهودات الضخمة التي انتهت بمسرحنا الى شيء قريب من النضج والاستواء ..

يذكر أبو نظارة أنه كان مديرا للمسرح ومؤلفا لتمثيلياته . وكان يقوم في بعض الأحيان بمهمة الملقن ، وقد حدث أن تغيب الملقن في إحدى الليالي بسبب وعكة أصابته ، ولما كان المترجم له لا يستطيع أن يقرأ في تلك الظروف لضعف بصره الشديد فقد جاء بشاب وحدد له مكانه بين الكواليس ليلقن الممثلين ، وطلب اليه أن يقرأ الحوار بصوت منخفض ويترك الممثل يتبعه غير أنه لم ينفذ التعليمات حتى اضطرب الأمر على الممثلين وكادوا يعجزون عن أداء أدوارهم ، ولم يقف عجز الملقن عند هذا الحد بل أطل برأسه على المسرح وقال لأحد الممثلين « لا تسرع هكذا فلا تعلم أن العجلة من الشيطان ؟ » أتركني ألقنك وكرر الكلام من بعدى ، .. فانفجر الجمهور ضاحكا ! .. فما كان من يعقوب إلا أن شد على أذني الملقن الذي ضايقه ذلك . فانطلق مفتاطا الى المسرح « وقذف وجه الممثل المسكين بخطوط التمثيلية ، ونسب عراك بين الرجلين ، واضطرت الى الظهور على المسرح

لافضى المعركة بين ضحكات الجمهور وتهليله « ..
ويعلق أبو نظارة على ذلك بقوله « ولو وقع هذا الحادث فى
أحد المسارح الأوروبية لاعتبر فضيحة من الفضائح ، أما فى
مسرحى الذى كان فى ذاك الوقت فى دور الطفولة فقد لقي
الحادث نجاحا كبيرا ، وفى الليلة التالية أعلن الجمهور عن رغبته
فى مشاهدته مرة أخرى « ٩ !! ..

ويحكى الفنان المفتن ألوانا من القصص عما صادفه فى عمله
المسرحى ، وهو يصور لنا بساطة الشعب الذى كان يمثل له
وبراة سريره وسماحة خلقه ، فقد كان النظارة يتدخلون فى
التأليف والتمثيل ! .. ويفرضون آراهم على المؤلف رضى أو
سخط ، وما كان له الا أن يرضى أو ينصرف عنه المعجبون من
رواد مسرحه ، وهو يذكر على سبيل المثال أنه كتب عددا كبيرا
من التمثيليات المضحكة وقدمها لمسرحه ، وكان معظمها يتألف
من فصل واحد ، ثم رأى من واجبه أن يضمها نصوص أخلاقية
فألف لذلك الغرض تمثيلية من فصلين ، بطلتها فتاة لعوب
عبثت بكثير من الرجال ، حتى ساءت سمعتها فهجرها جميع
الناس وأصبحت وحيدة لا معين لها ، ولم يرض الجمهور عن
هذه النهاية المؤلمة للممثلة ، وكانت فتاة قادرة حقا - بما أوتيت
من جمال وفتنة - على انتزاع إعجاب النظارة على اختلاف مراتبهم
وأسنانهم ، فاستقبلت التمثيلية بالصفيير فى اليوم الثانى ،
فبرز يعقوب على المسرح مستوضحا أسباب غضب الرواد
وصفييرهم ، فأجابه شاب قائلا « انت تعلم يامولير أن صفصف
- وهو اسم الممثلة - فتاة شريفة .. وينبغي اذن أن تجد لها
زوجا جديرا بظرفها وجمالها .. عليك أن تخصص الفصل
الآخر من تمثيلتك لزوجها ان أردت أن نصفق لك والا فأننا
لن نختلف الى مسرحك أبدا » ويضطر المؤلف الى النزول على رغبة
الجمهور فيزوج الفتاة اللعوب آخر الأمر وان خالف ذلك منطق
الرواية والعبرة فيها !

ويؤكد لنا أبو نظارة أن مستوى المتفرجين ارتفع ارتقاعا
ملحوظا فى السنة التالية لانشاء مسرحه ، وأنهم كانوا يميلون
الى الروايات الجدية ويستقبلونها استقبالا حسنا ، وتجاوب
المؤلف والممثلون مع جمهورهم فقدم لهم تمثيليات مترجمة عن

اللغات الفرنسية والاطالية والانجليزية ، غير أن ذلك لم يمنع القوم من التقاط الهفوات وتسقطها وقلب المسرح من الجذ الخالص الى هزل يتندر به الجيل جميعا .

ويضرب أبو نظارة مثلا على تلك الهفوات بأنه كلف احدى الممثلات بأن تقوم بدور الحبيبة الوالدة أمام ممثل كانت - على غير علم من يعقوب - تكرهه ولا تطيقه مع أن الممثل كان ولهان حقا حتى أنه طلب يدها فردته ساخطة ، واضطرت المثلة الحسنة أن تقول في التمثيلية أمام النظارة لذلك الممثل البغيض الى قلبها « اسأل نجوم السماء التى تحاكي جمالك عن سهادى ٠٠ انى اقضى الليالى لا اذوق طعم الراحة فاناجيها وانا أفكر فيك ٠٠ يا نور عينى الذى يعشقك قلبى وتعبدك روى ! آه لو تعلم كم أنت عزيز على ؟ لن تسحر فتيات آخر بنظراتك الالهية وابتساماتك الملائكية . الرحمة الرحمة بعصفورتك ودعها تؤمل فى أن تكون عبدة حبك ! آه لو هجرتنى فلسوف أموت . ولكن لو انى كنت واثقة من زيارتك لقبرى لرجوت الله أن يسترد اليه روى ٠٠ » وحين استمع الممثل الى حديثها راقه التمثيل وأعجبته المعانى ، فهمس اليها قائلا « ليبارك الله المسرح الذى يجعلك تتنازلى عن كبريائك ويضطرك الى أن تبوحى لى بحبك أمام آلاف الناس » وغطاها القائل والمقول فنسيت المثلة أنها على المسرح ، ودفعها غضبها مما سمعت الى صفع الممثل المسكين صفعة قوية ! ثم التفتت الى الجمهور وقالت له فى غضب « ان كلمات الحب التى وجهتها لهذا الفتى المفرور الغيبى لاتعبر عن احساسى الحقيقى نحوه فأنى أوثر العمى على حبه . ان مؤلف الرواية مولير مصر هو الذى وضع تلك الكلمات على لسانى » !

وذهل أبو نظارة مما شاهد وسمع . فقد وقفت التمثيلية ، وقام الممثلان برواية أخرى استقبلها الجمهور بالتصفيق الحاد ، فقد راقه حوار الممثلين وما تضمنه من مفارقات ، فلما استؤنف تمثيل الرواية طالبوا كما هى العادة فى التقاط الهفوات باعادة تمثيل هذا الفصل المضحك ، وقد أعيدت فعلا التمثيلية نحو شهر ولم تخل ليلة من صفة يتلقاها الممثل من زميلته ويضحك لها الجمهور من أعماقه ، وبذلك خفت مرارة المثلة وأصغت بالمودة الى زميلها ، وبلغ السرور من النظارة مداه والاعجاب بالممثلين

أقصاء حين علموا أن تمثيل هذا المنظر الدخيل قد قرب بين
الحصنين حتى تلاقيا بعد شهر زوجين حبيبين ..
ويقصد أبو نظارة في رواية النوادر التي مرت بحياته
المسرحية ، ويرى أنها جديرة بكتاب ، ليته قام بتأليفه ! فما
أحوج صناعة التمثيل في مصر الى سجل لتاريخها القديم ، وهو
تاريخ نهجه ، وإن كنت اليوم قد عرضت نشأته ، وهي نشأة
قديمة ، وهي أقدم أو تكاد أن تكون أقدم من نشأة الصحافة
الشعبية نفسها ، وحسبنا ما رواه في هذا الشأن صحفينا الكبير
يعقوب بن صنوع ، فقد ختم حديثه عن تلك النوادر بقصة طريفة ،
فيها تصوير لحث الحثاء وسذاجة الساذجين .

قال وهو يحدثنا عن متاعبه انه عرض رواية (ليلي) لأول
مرة على مسرحه « التياترو الوطني » وهي مأساة كتبها له صديقه
الشيخ مجيد عبد الفتاح ، وحضرها الوزراء وكثير من العلماء
والشعراء ، وكان في التمثيلية منظر لطاغية يقتل أولاد سيد
القبيلة الأربعة ، وكان في القاعة لحراستها شرطيان حديثا العهد
بخدمة البوليس ، فانتهر أحد الحثاء من المتفرجين تلك الفرصة
وقال للشرطيين بصوت خفيض « أيرضيكما أن تقترا هذه الجرائم
لها مكمما ؟ » وما أن سمع الشرطيان الجاهلان هذا الكلام حتى قفزا
الى خشبة المسرح وقبضا على المثل الذي كان يقوم بدور الطاغية !
« ودوت القاعة بهقهة المتفرجين وتصفيقهم » وكانت تلك الحادثة
منار التعليق في جميع الأساط ؟!

ولم تقف الحوادث عند ذلك الحد ، فقد كان هناك بعض النظارة
الذين لا يخلو فصل من تعليقاتهم العلنية أثناء التمثيل ، وكانوا
يوجهون كثيرا من الأسئلة والإيحاءات الى الممثلين والممثلات ،
كان يقولوا لأحدهم « سوف نرى ان كنت ستتتركه يخطف منك
محبوبتك ؟ » ثم يقولون لأحدى الممثلات « كيف تفضلين هذا
الأهبل المتعجرف على هذا الشاب الغنى الوقور الذي يموت في
حبك ؟ » وكان أبو نظارة يختفي وراء الكواليس ليلقن الممثلين
اجاباتهم المناسبة على ملاحظات الجمهور ، وكان الحديث بين ممثل
فرقة وبين النظارة يطول أحيانا ، بل قلما كانت تنتهي تمثيلية
له من غير أن يلبي طلب الجمهور ويظهر بنفسه على خشبة المسرح
ويقول شيئا مضحكا وجديدا !

وقد أوحى هذه المتاعب إلى المترجم له بأن يؤلف مسرحية
 ساخرة ينقد في أكثرها ممثل الفرقته وموظفي مسرحه ..
 تلك قصة المسرح العربي المضرى في نشأته وهي قصة فيها
 شيء من السذاجة والبساطة الملحوظة ، غير أنها قصة تؤكد أن
 المسرح في مصر لم ينشأ إلا بين يدي مصري ، وأن أحدا من البلاد
 العربية المجاورة لم يكن له فضل في انشائه ، وهي قصة تؤكد
 أن هذا المسرح الساذج قد استطاع أن يباشر مهمة تعليمية كانت
 مصر تفتقدها بين أدوات التعليم الأخرى ، وهي قصة تؤكد أن
 صاحب المسرح كان ممثلا بطبعه ، فإن حياته - كما سنعرفها في
 مصر والخارج - تمثيلية رائعة مروعة ، وهي قصة تبين أن المسرح
 قد رفع عن قلب الممثل الكبير غصنة كانت حبيسة فيه بما مثل على
 مسرحه من أدوار تعلن بؤس البائسين وتروي حكاية الأحرار
 المتطلعين ، وتنقد مساخر العصر وتقاليد البالية وتفتح عيني
 الشعب خاصته وعامة ، وتبصره بما ينبغي عليه من واجبات
 إزاء الطغاة الظالمين .

لم يكن عجباً أن ينشأ في مثل تلك الظروف مسرح (أبونظارة)
 ولم يكن غريباً أن يضيق بمسرحه الحديو اسماعيل وتضيق به
 بطائنته من رجال السوء ، إنما العجيب الغريب حقاً أن يرفض
 الحديو عن وجود هذا المسرح سنتين كاملتين ..

الاستاذ الادب

كان اغلاق مسرح يعقوب بن صنوع مفرق الطريق في سياسته ازاء اسماعيل ، فان اغلاق المسرح بأمر الحديو أفقد المترجم له النخبة الواعية من أنصاره القريبين من القصر، ولم يقف اضطهادهم عند حد ، فقد أغلقت دونه أبواب الوظائف العامة وتعقبه المسئولون في الصحف القليلة التي كانت تصدر اذ ذاك ، وأشهروا عليه حربا عوانا حالت بينه وبين الكتابة فيها ، غير أن يعقوبا صمد للمحنة فلم يتطرق اليأس الى قلبه ، واتجه الى نشاط ثقافي وطني يلائم ذوقه وحسه ، فأسس جمعيتين علميتين أدبيتين ، سميت الأولى (محفل التقدم) وسميت الثانية (محفل محبي العلم)، وانتخب لهما رئيسا ، وهما جمعيتان تعتبران في رأى البعض نواة للحزب الوطني القديم .

وكان أبو نظارة ، وزملاؤه من أعضاء الجمعيتين المبرزين يقومون بالقاء المحاضرات عن تقدم الآداب والعلوم في أوروبا ، وكان يحضر اجتماعاتهم ومحاضراتهم المسلمون والنصارى واليهود ، وبذلك خفت حدة العصبية الدينية ، وانهت الجمعيتان الفكرة السائدة لدى الأوروبيين من أن المصريين اذا اجتمعوا في ندوة أو اختلفوا الى ناد كان التعصب رائدهم وكراهية الأجانب ديدنهم ، فقد كان شيوخ الأزهر وأعلام الدينين الآخرين يساهمون فيما يلقي من محاضرات وخطب ، وكان المتحدثون جميعا يدعون للحكمة والاخاء بين الشعوب دون تمييز عنصري أو ديني ، وكانت الصحف المحلية تحتفل بنشر أخبار الجمعيتين مفصلة ، الأمر الذي مكن لهما في نفوس الكثرين حتى أقبل عليهما طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش المصري ليفتروا من منهلها مبادئ الحرية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة .

ويحدثنا أبو نظارة عن المتاعب التي صادفته في هاتين الجمعيتين ودور الانجليز في القضاء عليهما فيقول « وكان تاريخ فرنسا وآدابها من الموضوعات الرئيسية لمحاضراتي مما ضايق الانجليز الذين كانوا يريدون أن ادعو لنفوذهم وأشجعه بينه

آبناء وطنى • وقد انتقموا منى •• ونجحوا بوسائلهم الوضيعة
وبدسائسهم الرخيصة فى أن يلقوا فى روع الحديو اسماعيل أن
هاتين الجمعيتين انما هما مركزان للثورة ، فما كان منه الا أن منع
التلاميذ والطلبة والعلماء من حضور اجتماعاتنا ، واضطرت
الجمعيتان الى اغلاق أبوابهما • وهكذا كبت اسماعيل المتنفس
الثانى لابن صنوع فى سنة ١٨٧٤

قضى على المتنفس الاول وهو مسرحه الذى كان يعبر على
خشيبته عن لواعج نفسه ، وقضى على الجمعيتين المذكورتين اللتين
كان يختلف اليهما كثيرون من الساخطين المتبرمين ، وطن اسماعيل
أنه قد قضى على كل ناد للاحرار ، وأنه تغلب على المعارضة أفرادا
وجماعات ، سواء عن « سوء هضم القهوة » للأفراد ! أو عن طريق
اغلاق منتديات العلم والادب ، وكان خصومه يخرجون من بيوتهم
فلا يعودون ، ولا يدري أحد ما لهم طال الزمن أو قصر • وكان
الناس اذا تحدثوا برأى جديد أو نقدوا فكرة من أفكار الحاشية
الطائشة نالهم من غضب الحديو الشيء الكثير ، وفى مقدمة ما نال
معارضى اسماعيل مصادرة أملاكهم • ولم يسلم منهم حتى عمه
حليم الذى صادر أملاكه ونفاه • وجعله بذلك قبلة الاحرار من
المصريين ••

ولم يمنع الخوف أو الذعر والهلع عامة المصريين من التحدث
عن الفساد الذى استشرى فى البلاد ، فكانوا يتسقطون الاخبار
السياسية والاقتصادية من الأجانب المقيمين أو الوافدين •
ويقبل بعضهم على قراءة تلك الاخبار فى صحف الفرنجة أو
برقيات وكالات الأنباء وقد أصدر اسماعيل - لعلاج ذلك الموقف
- أمرا بمنع طبع البرقيات التى تأتى من أوروبا وترجم الى اللغة
العربية ، ومع ذلك كله فإن جماعة من الاحرار قد أخذوا على
عاتقهم اعداد ما تضمنته البرقيات وغيرها من مقالات الصحف
الأجنبية الوافدة وترجمتها الى العربية ونسخها ثم توزيعها
على أوسع مدى مستطاع ، هذا الى أن أنصار الحزب الوطنى
من الرعيل الاول عاودوا الاجتماعات سرا لتدارس الموقف وبث
الدعايات المختلفة ضد الحديو ويطائحه •

مضى أبو نظارة مساهما فى ذلك كله ، عائلا لأمه وضيافته ،
محتملا مصاعب الحياة واضطهاد المسئولين ، لاينى عن الخطابة

والكتابة كلما استطاع الى ذلك سبيلا حتى حاجت أفعاله وأقواله غضب اسماعيل فقال « ان هذا الموليير المعتوه بخطبه وأشعاره يفتح أعين رعاياي أكثر مما يجب ، وان لم أقض عليه فلن أستطيع الحكم ولن يطيعنى أحد » . .

ويبدو أن حدة الخلاف بين يعقوب بن صنوع والحديو اسماعيل خفت قليلا في سنة ١٨٧٥ أى بعد غلق الجمعيتين الأدبيتين العلميتين بسنة واحدة ، وكانت هناك قلة في الحاشية ترجو أن تستقيم الأمور للقصر ، ولا يتمادى الأمير في خصوماته لأهل الرأي وزعماء الفكر في مصر ، وكان على رأس تلك القلة أديب أريب هو أحمد خيرى باشا « مكتوبجى الحضرة الحديوية الفخيمة » وهو من الرجال المتأزين المحيطين « بولى النعم » اسماعيل ، وتربطه بكثير من الأحرار صلات مصدرها الإعجاب المتبادل بالآراء الجديدة التي شغلت البلاد في ذلك الوقت ، وقد عرفه الناس منذ أشرف على تحرير الوقائع المصرية في سنة ١٨٦٥ فقد كان توجيهه لها دليلا ماديا على تفوق الرجل واعتدال مزاجه وبعد نظره في جليل الأمور . .

استطاع خيرى باشا - وكان في تلك السنة كبيرا لا مناه اسماعيل - أن يقنع الحديو بأن يعقوبا مواطناً شريفاً جديراً بتقدير الوطن ، وأنه رجع الصدى للنهضة الشاملة التي خلقها حكمه الزاهر ، وأنه قمين بثقة ولى الأمر ، وأصفى اسماعيل الى كبير أمنائه وشرط لعطفه على المترجم له أن يعتدل في كتاباته وخطبه ، وخاصة تلك الخطب التي كان يلقيها في المحافل الماسونية العربية التي ساهم يعقوب في تأسيسها منذ سنة ١٨٦٥ ، ووعد خيرى أن ينفذ شروط اسماعيل مقابل الرضا على أبى نظارة وعمل على تحقيق هذا الرجاء بطرق عملية واضحة تقرب يعقوبا الى المسئولين وتعينه على الحياة .



أحمد خيرى باشا

ووقع خيرى باشا (المعاهدة)
دون علم يعقوب ! ولم ينكر ابن
صنوع أنه رضى ما انتهى اليه
أمر الوثيقة الشفوية بين الحدبو
وصديقه الحميم ، ويؤكد ذلك
بفقرات مما كتبه عن تاريخه
بقوله « ومنذ ذلك اليوم أخذت
أقضى سهراتى فى قصر عابدين
مقر الحدبوية ، فتعرفت بجميع
وزراء اسماعيل ، وقد كلفنى
معظمهم بتعليم أولادهم الفرنسية
والانجليزية . وهكذا عدت ابتداء
من ذلك التاريخ الى ماكنت عليه
من قبل ، أى شاعر البلاط ،
وكنت أبعث بشعرى فى مناسبات
الأفراح وأعياد الميلاد » .

وعاد يعقوب بن صنوع الى
ماكان عليه من قبل ، مادحا للبيت

المالك ، مسجلا مديحه فى أشعار بعث بها فى المناسبات المختلفة ،
غير أنه كان فى هذه العود دارسا باحثا يتسقط الحوادث
والأخبار ويستوضح مغالقات السياسة التى انتهجها اسماعيل
لشئون الداخل والخارج ، منتويا الشرحين يحين وقته ، فكانت
معاهدته التى أقرها بالنيابة عنه خيرى باشا معاهدة على دغل ،
ويزوى أبو نظارة نواياه فى قوله « فقد كنت أشاهد عن كثب
جميع جرائم اسماعيل ، وإن عشت فلسوف أنشر أفعاله الوحشية
التي سترتعد لهولها فرائض العالم أجمع » .

ومضى يعقوب بن صنوع قريبا من القصر وعيونه ، يدرس
كل ما يدور حوله من خفايا حتى وجد انحراف الحدبو انحرافا
ظاهرا ، فقد تأكد منذ سنة ١٨٧٧ أن اسماعيل كان يلقي فى روع
الشعب عن طريق عملائه فى الصحف وأعوانه فى الريف أن
الضرائب المجحفة التى كان يفرضها على الفلاحين ، إنما كان
يضطر اليها ليتمكن من أن يسدد المبالغ الضخمة للأوروبيين ،

وهي المبالغ التي كان يحكم عليه بدفعها اثر محاكمات ظالمة .
وكان أبو نظارة - كما رأينا في تاريخه الطويل - يؤثر ود
الاجانب ويرجو الاتسوء العلاقة بينهم وبين مواطنيه .
ولا أريد أن أحكم على (أبو نظارة) حكما جائرا في نظره الى
هذا الامر ، فأعيب ميوله نحو التخفيف من ضيق الشعب
بالأوروبيين ، فقد يكون الرجل مؤمنا بأن هذا الضيق لن يؤتى
ثمرة يرجى من ورائها خير لوطنه ، كذلك لأعيب عليه أبداتيرمه
بسياسة الحديو المالية ، فقد كانت سياسة جديرة بالحمة عليها
وتبصير الشعب بسوء المصير فيها ، وهكذا مضى الكاتب معلنا
تبرمه باسماعيل وثورته عليه ثورة كانت عدتها مقالات نشرت
له لم نعتز عليها ولم يشر هو الى مكانها بين صحف الجيل ، وانما
يؤكد المترجم له أنه هاجم ولى الامر بحملة كتابية كلامية واسعة
النطاق « لأنه كان ييذر في قلوبهم كراهية الأوروبيين »
فبيعت في صدورهم نار التعصب التي كدت أنا وأصدقائي
أعضاء الحزب الوطني أن نطفى جذوتها . *

ويذكر أبو نظارة أنه استرسل في خصومته لاسماعيل فذهب
الى المحافل يخطب ناقدا سياسته المالية واسرافه في فرض
الضرائب « ويحكى أنه اختلف الى معظم صحف العصر فنشر
مقالات كثيرة في هذا الموضوع ، وحذر مواطنيه اذا خطب أو
كتب من فكرة التعصب التي كان يوحى بها الحديو عن طريق
عملائه وأدواته الرسمية في المدن والريف ، وترتب على موقف
يعقوب هذا أن خسر عطف اسماعيل مرة أخرى ، حتى ان أبواب
المحافل والصحف أغلقت دونه ، وهددت بالعصف والتعطيل ان
أعطت فرصة للكاتب الناقد بالخطابة أو التحرير . *

ويروى لنا أبو نظارة أن اسماعيل انتقم منه انتقاما ماديا في
الظروف العصيبة التي كان يمر بها المترجم له ، فقد كلفه في
سنة ١٨٧٤ بالسفر الى أوروبا ، وقام بالرحلة تلبية لأمره ،
ولم يفصح الكاتب عن الأسباب التي دفعت الى هذا التكليف ،
ولا القصد منه ، وانما يذكر أنه أدى المهمة على خير ماؤدى
المهمات الشبه رسمية ، وأنه حين عاد الى مصر عكف على كتابة
تقرير مفصل متضمنا أشياء كثيرة لم يشر اليها أبو نظارة وهو
بروى تاريخه . ويبدو أن اسماعيل احتفظ بصورة التقرير عدة

سنوات ، فاذا غضب على صاحبه أبى عليه نشره فى الصحف بل هدد الصحف بالاعلاق ان حاولت ذلك ، ولم يقف الأمر عند حد منع نشر التقرير بل ان الحديو أعدم المخطوط بحجة أنه تقرير ثورى ورفض أن يدفع تكاليف الرحلة وهى ثمانية آلاف قرنك ..

كان يعقوب يجتاز فى تلك الفترة أزمة مالية حادة ، وزاد من أزمته أن رفض الحديو دفع تكاليف مهمته ، وغازه أن يرى اسماعيل يبسط يده كل البسط لكثيرين من الصحفيين المصريين والأجانب ويقبضها دونه ، وكانت تلك الأزمة من العوامل التى دفعت بالترجم له الى شن الحملة على الأمير بمنف ودون هوادة ، والتمس لها ألف سبيل لينتقم لنفسه ، وينتقم أيضا - كما يقول - للشعب الذى راضه اسماعيل على الذل وأخذ يضطهده بقرض الضرائب متعللا بمطالب الأجانب وأحكام محاكمهم .

لم يقف نشاط يعقوب لحظة فى الحملة على اسماعيل ، بل قام هو مقام الصحف برواية كثير من فضائحه فى المجتمعات المتباينة التى كان يختلف اليها ، وأحس خطر تلك الحملة شريف باشا وكان ناظرا لخارجية الحديو ومن يرون فى يعقوب بن صنوع الرأى الحسن ، وعلم الباشا أن الحملة التى يقوم بها المترجم له قد تركت أثرا كبيرا فى نفوس عامة الناس وخاصتهم ، فقد كان يعقوب معروفا للشعب جميعا ، وهو رواية يحسن الحديث فى ندوة العلماء كما يحسنه فى قهوات أبناء البلد ، فأشار شريف على الحديو بأن يصحح الوضع ويلتمس لهذا التصحيح وسيلة ترضى ابن صنوع فأجابه الحديو قائلا « ان لم يسكت هذا المغرور فأنى سأعرف كيف أسكته ، وان ضايقتنى أكثر مما ينبغى فأنى سأسحقه بين أصابعى كما يسحق البرغوث ! » وقد نقل لنا هذه الرواية أبو نظارة فى تاريخه ، وسجلها حين قصها عليه شريف باشا قبل أن يعضى الى ربه بفترة قليلة .

ولما وجد أبو نظارة أن الصحف المصرية قد أوصلت أبوابها دونه ، قرر أن ينشئ هو الصحف على نفقته ويتولى القضايا التى كان يريد أن يتولاها بالعرض والتفصيل فى الصحف المصرية ، واستند فى الجولة الجديدة الى القنصلية الإيطالية فنال حمايتها كما كان يصنع كثير من أحرار الصحفيين ، وبدأ نشاطه باصدار

صحيفة هزلية باللغة الفرنسية سماها (المبعوضه) ثم أنشأ
صحيفة أخرى باللغة الفرنسية سماها (النظارة) ، ثم أسس
بعد ذلك صحيفة أصدرها بثماني لغات هي (الثروات المصرية)
وكانت هذه الصحيفة من أوسع صحف هذا العصر انتشاراً
ولقيت رواجاً في جميع الأوساط حتى تنبّهت لها الحكومة
فأصرت على إغلاقها .

وفجأة وجد يعقوب صنوع نفسه من غير قلم أو قرطاس ،
واحتبست في صدره الأفكار والآراء ، وعز عليه أن يعبر عن
أفراضه بأية وسيلة من الوسائل ، فرأى أصدقائه القريبين من
القصر ، أو الذين لهم حظوة فيه أن ينصحوا له بأن يخفف من
حدة هذه الحصومة ، بل طالبوه بأن يغير سياسته إزاء الحديوي
حتى يستطيع أن يعيش في فلك الأمير كما يجري غيره من كبار
الناس ، واستمع أبو نظارة إلى نصيحهم واعتكف شهرين مظهراً
ندمه و لوى النعم ، على ما يدر منه ، وكان ذلك وسيلته الوحيدة
لرضاء اسماعيل ، هذا الرضاء الذي أذن له أن يعيش ، وأن تفسح
له الدنيا مكانها ، وأن يحتل في تاريخ الصحافة المصرية أعز
مكان ، وأن يكون علماً من أعلام النخبة المنتقاة من المصريين ، وأن
يكون خصم البيت المال إذا أخطأ وصديقه إذا أصاب وأن يحيا
لكفاح الاستعمار الانجليزي في مصر والسودان ، وأن يعلن عن
مصر بأحسن ما يعلن المواطن الحر الشريف عن بلاده .
هذا الرضاء قد أذن له بأن يصدر مجلة (أبو نظارة) ليحيا
فيها يعقوب مابقي الكون وبقي في الكون انسان .

أبوظظارة فى مصر

صدر العدد الأول من مجلة أبوظظارة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٢٩٥ هـ بمدينة القاهرة ، وكان اسمها (أبوظظارة زرقاء) وتحت العنوان كتبت عبارة (جريدة مسليات ومضحكات) وليس فى العالم كله فىما نعلم مكتبة عامة أوخاصة تحتفظ بالعددالأول من (أبوظظارة زرقاء) ولا بالأعداد التالية التى صدرت فى مصر وعددها خمسة عشر عددا .

وقد حصلت على هذه الأعداد فى مخطوط كتبه يعقوب صنوع صورة مطابقة كل المطابقة لما صدرت به تلك الأعداد فى عهد اسماعيل ولكنها حرقت بأمرالطاغية ولم يحتفظ أحدبأى عدد منها . .

ويشير يعقوب صنوع الى الظروف التى أوحى باسم مجلته ، فيذكر أنه اجتمع طويلا بالسيد جمال الدين الافغانى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لاختيار الاسم المناسب ، وبالرغم من هذا الاجتماع الطويل فانه ترك بيت الافغانى صفرا من أى اسم فأحاط به المكاريه (أصحاب الحميز) وكان كل واحد منهم يريد أن يختار يعقوب حماره ويقول « ده يا أبوظظارة » فأعجبه النداء وقال لقد وجدت اسم الصحيفة . . وقد أعجب بهذا الاسم كثيرون من أصدقاء يعقوب ، فهو ينم عن معنى فان (أبانظارة) يومئ الى أنه رجل يرى من بعيد ، وفى ذلك مايعنى أنه رجل ملهم لآفتوته فاقته .

وقياسا على ماكان يتبعه الصحفيون فى ذلك العهد ، قدم يعقوب لصحيفته بافتتاحية تضمنت رسالتها وأهدافها ، وقد جاءت فى أسلوب ركيك وعبارة لعلها أضغف لماكتيبه يعقوب أسلوبا وعبارة سواء فى مصر أو فى أوروبا ، غير أن اهمال الإشارة الى افتتاحية العدد الأول لم يكن جائزا ونحن نؤرخ لآقدم الصحف الهزلية فى الشرق كله ، ونؤرخ لها من مجموعة خطية قد تضميع على مدى الزمن وتختفى فيها ذكريات رائعة

من تاريخ الصحافة المصرية • •

لقد تحدث أبو نظارة كثيرا عن نفسه في هذه الافتتاحية ، وحدثنا عن أهدافها بما لا يخرج عما جاء في أعدادها التالية وهو لن يتركنا في عدد من أعداد صحفه الا ويذكر لنا شيئا من ذكرياته ومشاهداته ، وسيمضي في ذلك نحو ثلاثين عاما ، فإذا فرغ من ذلك شغلنا بمحاوراته الفكاهية التي جرت بينه وبين « أبو خليل » أو « أبو الشكر » أو « الصدفجي » أو غير ذلك من الأسماء ، وأحيانا يختفي أبو نظارة من هذه المحاورات ويتركها على لسان آخر ، وكثيرا ما وجدنا « المستر بول » يحاور مصرية « كآبي الشكر » في موضوعات شغلت معظم الخمسة عشر عددا التي صدرت في مصر .

ثم كان يقدم في تلك الأعداد فصولا تمثيلية فيها نقد لحياتنا الاجتماعية ، ونقد لحياتنا السياسية ، وإن كان في عرض هذا النقد الأخير متحرجا أشد التحرج ، حريصا أشد الحرص على ألا يسئ للخدوي أو بطانته أو حكومته ، ومن هذه الفصول (القرداتي - لعبة تياترية حصلت في أيام الغز سنة ١٣٠٤) ومن أشخاص هذه « اللعبة التياترية » السنجق دبوس أوغلو ، وسعد ، وبقلاوة أغا ، وشيخ الحارة .

ويريد يعقوب أن يصور بهذه المحاورات مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات في عهد اسماعيل وإن أرجعها الى تاريخ سابق قديم ، ويريد أن يعطي صورة عن الحكومة التي تسيطر على شئون الناس ، وهذه اللعبة التياترية التي ضربنا بها مثلا تصور في منظرها الثاني ديوان السنجق دبوس أوغلو ، وفي حضرته الأشخاص الآخرون الذين أشرنا اليهم في الفقرة السابقة ، إن موضوع القضية يعني أن « سعدا » هذا سرق حمار المعاون ليدفع الضريبة ، وأن المعاون نفسه هو الذي حُصه على السرقة والاحبس وهو يقصد من ذلك تصوير الحياة المصرية بما فيها من مفاسد ، مفاسد أدوات الحكومة التي تطالب بالضريبة ولو عن طريق السرقة وهو - حتى ذلك الحديث - لم يهاجم رأس الحكومة بل هاجم أدواتها فقط ، ومن الحق علينا أن ننشر هنا الفصل الثاني كاملا حتى نعطى صورة طيبة لآلوان هذه المحاورات « التياترية » وهي محاورات سيطرت على قلم يعقوب بن صنوع في معظم صحفه ، وفيها يعبر عن طبعه الغالب على حياته ، حياة المفتن الذي بدأ

مثلا ، وكان يرجو أن يمضى فى مهنة التمثيل ، فاذا أعجزته الظروف أجرى قلمه فى صحفه على طريقته التمثيلية التى تفرد بها ، وعز على آخرين أن يجاروه فيها .

نحن فى ديوان السنجق دبوس أوغلو .

قال السنجق - كولو (يعنى قولوا) انتم ياشييك (ياشيخ) الحارة ، ماذا حصل فى قضية همار (يعنى قضية حمار) بقلوة أغا . لكن كولو كلاما دوجريا (يعنى دوغريا) والا كطعتو رأسك .

قال شيخ الحارة - ياسيدسناجق الدنيا - يا أمير المؤمنين - يابطل - يا أسد - ياسيد الشجعان .

قال سعد - ده السنجق ما يحبس الكلام ده - احكى له الحكاية بكلمتين والا خلى المااون يحكى .

قال السنجق - اهكى أنت يا فرعون .

قال سعد - أنا ما اسميش فرعون وحياتك . أنا اسمي سعد . انما من يوم ما حكمتو بلادنا أنتم ياغز ، السعد شافنا وهرب .

قال السنجق - جلاد جال يا جلاد .

قال سعد - الجلاد ده صنعته إيه .

قال بقلوة أغا - اكطعتوا رأس بتاع انت .

قال سعد - حلیمتلو وشفتلوا (يعنى حلكم وشفتلك) يا جندى خلىنى أولا احكى لك قصتى وبعد أمر جلادتلو أفندى ينزع . رأساتلو من كتافتلو (يعنى من كتفى) .

(السنجق يضحك ضحكة وطل) !!

طيب يا قرادتجى اهكى قصة بتاع أنتم .

(سعد يقول فى نفسه) - والله الرطان نفع ، الكلمتين التركى رطبوا خاطر السنجق .

قال شيخ الحارة - يالله ياسعد يا حبيبى - كلم سعادة السنجق .

قال سعد - بقى المااون ده اللى قدامك ياسيدى ، ده ثقيلتلو قوى ورزالتلو موش زى سعد أفندى خيفتلو ولطافتلو ، لاده بيراضام جاته أضامه - قال لى روح اسرق وهات الفرده والا يا فلاح وحيات راس الأمير . (١) مراده يقول احبسك - بس هو ما يعرفش عربى . فخرجت أنا محتار فى أمرى ، وأولادى

١ - هنا لفظ يعنىنا الحياه من ذكره

الحمار والقرد والكلب يبيكوا ورايه ، وكان شي يحزن قلب الكافر
ياسنجق ، أصال شيخ الحارة ، فرفعت عيني لأبى خيمة زرقاء ،
وقلت له - يارب العباد يارحمن يارحيم اشفق على عبدك وخلصه
من يد الظالم ده ، فضربت بعيني وشفت حمارى الصغير بيبوس
فى حمار المعاون الحصاوى ، وما كانش لاجنبه لاسايس ولا خدام
فركبته وبرطعت يا جندى على آخر سرعتلو وأولادى ورايا ،
فقابلنا ابن الحلال ، وكلمة منه وكلمة منى بعث له الحمار بخمسة
معايب ، فرجعت على المعاون حالا وأنا فرحان وناولته واحد منهم
وضربت الأربعة فى شدقى .

قال السنجق - صحيح بوهكاية .

قال شيخ الحارة - وحياة راسك - صحيح - بعدما خرج سعد
جاسايس المعاون يجرى وأخبرنا أن الحمار انسرق فى غيابه
ولما زجع سعد ، بدون مانسأله أخبرنا بما حصل .

قال سعد - المعاون أمرنى بالسرقة فسرت واعترفت بذنبى
ومن قر بذنبه غفر الله له .

قال السنجق - جلاذ جال قطع راس بقلاوله أغا .

قال سعد - واحشيتها لوز وسكر .

قال السنجق - وأنت ياسعد خلى عند أنت الأربعة محبوب ،
وخذ كمان عشرة من خزنة بتاع احنا عليهم .

قال شيخ الحارة - أدى الانصاف والا بلاش - ربنا يطول
عمرى يا أميرنا .

قال سعد - ايدك على دول ياسنجق لما أطلعها ، واجمعنا على
العشرة محابيب خيلنا نروح نفتنظ الليلة ونشد ، وانت يا بقلاوله
أغا دود الأرض رايح ياكل منك بقلاوله وبلوطه - واخوانك
المعاونين لما يسمعو باخرتك يفتحوا أعينهم تما تاشرو ولا يظلموش
العالم .

هذه صورة من محاورات (أبو نظارة زرقاء) تعطى فكرة عن
الحياة العامة التى أراد أن يوضحها بطرقه الخاصة ، وتعطى أيضا
فكرة عن حياة المواطنين اذا أصابهم الرخاء ، وحسبنا
شرحا لذلك قول سعد حين تناول المحابيب العشرة من السنجق ،
فقد راح (يفتنظ ويشد) أى راح الى العبث الصارخ ومن بينه
تناول الحشيش ، وهو علة المواطنين عمالا وزراعا من قديم
الزمان .

ثم يمضى يعقوب بعد ذلك في اعداده التالية حاملا على الفساد
 نى (حكم قراقوش - لعبة تياترية حصلت في قبلى في أيام الغز
 سنة ١٢٠١ هـ) وأشخاصها « السنجى ظالم أوغلو وطرطور أغا
 القواس وأبو نفوسه شيخ البلد » وهو يبين لنا قسوة الضرائب
 المفروضة على الفلاحين ، حيث يطلب السنجى من أبى نفوسه
 شيخ البلد « العوايد والمال والفردة والاعانة والمكايلة والصخرة »
 (يقصد الصخرة) فردد أبو نفوسه قائلا هو أنتو خليتو فى البيربكرة
 وألا سلبه والتور وحياة السنجى بعناه بربع الثمن - بجأ أجيب من
 الهوا المحابيب والعوايد والمجابلة والدواهى الحرة دى كلها اللى خربتنا
 وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن » ثم يستمر الحوار على
 هذا الفرار عدة صفحات تروى مظالم العهد - عهد اسماعيل -
 وإن كان الكاتب أخفاها تحت حجاب التاريخ القديم .
 وتتطور سياسة الصحافة رويدا رويدا ، فقد كان يعقوب الى
 نهاية العدد الخامس ينقد حاضره بنقد ماضيه ، ويحكى ما يراه
 على لسان أشخاص مضى على زمانهم أكثر من أربعة أجيال وكان
 يصب النقد على أدوات الحكومة من موظفيها الأتراك ، وخاصة
 أولئك الذين كانوا يقومون بتحصيل الضرائب ، ولم يسفر
 قط فى أعداد الصحيفة الأولى عن خصومته لاسماعيل ، ويناقض
 ما رأيناه فى مخطوط الأعداد ما ذكره عن نفسه فى رواية تاريخه
 فى مصر ، فقد قال « وفى العدد الرابع من صحيفتى أخذت أمدح
 التعليم الذى يبذل نوره ظلمات الجهل حيث يحرمه الطغاة على
 شعوبهم ليمعنوا فى استقلالهم - وفى الأعداد التالية أخذت
 أبين فضائل الحرية التى هى ينبوع السلام والسعادة والنجاح ،
 وأحارب التعصب الدينى بسلاح الإخاء ، وقد شجعتى
 نجاح صحيفتى المتزايد ، وقد بلغ توزيعها آلاف النسخ فى حين
 لم تكن أوسع الصحف انتشارا توزع فى ذلك العهد أكثر من
 خمسمائة أو ستمائة نسخة ، فكشفت النقاب عن وجهى وهاجمت
 الحديو اسماعيل بشجاعة ، ذلك الحاكم الذى كان ينهب رعاياه
 بفرض الضرائب التى لأعداد لها ويقصم ظهورهم بالرسوم المجحفة
 . . . وبينت حينئذ للمصريين أن الأوربيين عامة والفرنسيين
 خاصة هم أصدقائهم ، وأنهم يريدون أن يروهم سعداء ، وأن
 الدولة الغربية الوحيدة التى تطمع فى مصر هى بريطانيا العظمى

التي منذ بداية هذا القرن تنظر الى بلادنا لان احتلالها يضمن طريق الهند .

يذكر أبو نظارة أنه بدأ سياسته تلك منذ العدد الرابع من صحيفته ومن يتصفح ذلك العدد يجد انه قد بالغ فيما سجله عن تاريخه في تلك الفترة ، فالعدد الرابع احتوى على محاوره بين (أبو خليل وإبي نظارة) واللعبة التياترية التي نشرنا ظرفا منها وهي الخاصة بسعد القرداتي ، ثم محاوره بين (الصدفجي وأبو نظارة) وليس في هذا كله مدح للتعليم وإن كانت فيه إيماءات الى ألوان الظلم الذي يقشحي حياة المصريين ، ثم بالغ أبو نظارة فزعم انه كان يوزع منها عدة آلاف بينما يذكر في العدد السادس وهو يحاور (أباخيل) انه يطبع نحو ألفي نسخة فقط قائلا ردا على سؤال أبي خليل عن حاله « ماشي زي الخلاوة . » ينطبع منه ييجي ألفين نسخة كل نمرة - دى الناس راغبة له قوى ولو انه حاجة هلسا ! »

ولم تكن أبو نظارة زرقاء شيئا « هلسا » كما يتواضع صاحبها فيذكر ذلك في أكثر من موضع ، بل كانت شيئا جديدا كل الجدة في حياة المصريين وصحافتهم ، وكانت لسانا يعبر عن عواطفهم ويقص ما يسيء العهد بطريقة قريبة تناول سريعة الهضم ، وقد أخذت رسالتها تنضج تماما منذ عددها السادس حيث أعلن المحرر عن ضيق الأُمراء بصحيفته ولا أقول الحُدود اسماعيل ، وإن كانت المعاني التي نشرها تحمل في طياتها السخرية به ، استمع الى المحاوره بين (أبو خليل وأبو نظارة) عن مقام المجلة وخطرها وما تركته في نفوس البعض ، قال أبو خليل : « هلسا ايه ياسيندى ، ده عين الجد ، والحكومة لازم تكون مبسوطه منه ، بيورى للاهالى الظلم اللى كان حاصل في أيام الغز والصدل والانصاف اللى حاصل في عصر ملك مصرنا الحلیم الشفوق اللى بيحب الرعايا كأولاده المزاز كما ترى ، فيرد أبو نظارة بقوله « انما بعض الأُمراء ما همش قاهمين الأُمَر ده - ربنا يظهر الحق ، »

ومنذ طلع العدد السادس على قرائه ، والصحيفة تعبر تعبيرا سليما عن الساخطين البرمين بالحكم وأساليبه ، الناعين على الانجليز تصرفاتهم وتدخلهم في شئون البلاد تدخلا يسى الى

كرامتها وحرمتها وعدالتها واستقلالها ، وهو حين يتحدث عن
الظلم والظلمة فكأنه يرسم صورة ممتعة للخدّيو اسماعيل
وحكومته ، ومع ذلك يبعد المظنة عنه بقوله فى آخر كل محاولة
« يارب العالمين احفظ لنا عزيز مصر لكونه يحب عبادك ويسعى
فى سعدهم » .

ثم انظر كيف يسجل يعقوب بن صنوع ما كان يجرى به
الهمس من أن اسماعيل اذا غضب على صاحب أو صديق دعاه
الى قصره وقدم اليه فنجانا مخلوطا بالسّم فيخر صريعا عند
عودته الى بيته ، ويعز على أسرته أن تعرف أسباب ذلك الموت
المفاجئ .

قال أبو الشكر - يامرحبا بك يا أبو نظارة .

قال أبو العنين - تفضل أقعد ياعم وانجلي .

قال خلاط - تريد تشرب ايه .

قال أبو الشكر - أبو نظارة قتيل البيرة .

قال أبو العنين - لا الراجل يحب القهوة .

**قال أبو نظارة - لا ياخويا - القهوة ما أحبهاش لانها مخطرة
فى الأيام دى واللى يشرب منها فنجان بيبرم .**

واذن فقد بدأ أبو نظارة يتجاوز حدوده ، وهى الحدود التى
ماكان لصحفى أن يتجاوزها والا تعرض للشر وعرض صحيفته
للخطر ، والحديث فى مثل موضوع القهوة ، وهى من الشائعات
التي تقرب من الحقائق فى عصر اسماعيل ، أمر خطير ، وخاصة
اذا سجل فى صحيفة سيارة يأنس اليها العامة قبل الخاصة ،
والشائعات حقائق عند الانسان العادى اذا طبعت فى كتاب
أو مقال ، لأن المطبوع له اثره فى النفوس فى كل زمان
ومكان .

لم يكن خطر مجلة (أبو نظارة زرقاء) كامنا فى فكاهاتها
ومحاولاتها والجديد الذى احتوت عليه أو الغريب الذى لم تشهده
صحافة مصر والشرق العربى ، بل كان خطرها فى أسلوبها ،
ولا أعني الأسلوب العامى وان كان هو الأسلوب الغالب على
صفحاتها جميعا ، بل أسلوبها الذى تضمن عدة لغات ولهجات ،
فأنت تقرأ فيها لغة عربية سليمة أو عامية لطيفة ، كما تقرأ لغة
تركية فى بعض الفاظ وجمل يعرفها المعاصرون وتقرأ أحيانا

اللهجة الشامية وحوارها الممتع ، كما تجد أحيانا أخرى عبارات فرنجية تعبر عن مقتضى الحال تعبيرا صادقا ، فهي من حيث وسائل التأثير متعددة الجوانب في تلك اللغات واللهجات التي يستطيع أن يقرأها المصريون والعرب والترك ، هذا الى أن المحرر تمكن من عرض النكتة أو الملاحظة وجعل في خدمته العبارة العامية أو العربية أو الشامية ، الى آخر ماكان يقدمه لنا من نكات مأثورة عن الفرنجة أو العرب .

ومجمل القول ان يعقوب بن صنوع قد بدأ ينزل الى ميدان السياسة سافرا بعد عدة أعداد من مجلته ، ولم يتورع عن مهاجمة الوزراء والأمراء والخديو بأسلوب ساخر فيه القواء ، فأريانه يحدثنا في عنف وشدة عن اضطهاد كاستلي « التي لولا هو من تحت وربنا من فوق ماكنت فلحت في جريدتي » وكاستلي هذا - كما يحدثنا تاريخ الصحافة المصرية - صحفي أجنبي صاحب مطبعة كانت في خدمة أكثر من جريدة ومجلة ، ولقى في عهد اسماعيل شيئا من الاضطهاد الملحوظ ، مع أنه يكاد يكون مواطنا مصرياً إذ أمضى في مصر نحو خمسين عاما في هذا الميدان ، وفي هذه الفقرة التي جاء فيها ذكر كاستلي حمل أبو نظارة حملة شعواء على الحكومة بمناسبة النظر في الدين ومشاكله وموقف « الديانة » من حاجات البلاد حتى قيل أن الصحيفة قد « أمر بقلها » كما سجل المحرر ذلك عقب الاشاعة التي انطلقت بهذا في كل مكان .

وقد مضى يعقوب في نقد الحياة السياسية وخاصة في معاوراته المختلفة ، ولم يتعرض في أعداد الصحيفة للخديو الا بالثناء في غير موجب للثناء ! كأنه يسخر « بولي النعم » لأنه كان يعتمد ذكره بالدعاء والتكريم في مواقف لايمكن أن تصلح لتكريمه أو الدعاء له ! غير أنه بدأ يهاجمه تحت اسم محجب هو « شيخ الحارة » يتجمل في شخصيته الظلم والجور ، ويقول فيه على لسان (الحلق) كلاما يدعو للثورة « وساكتين عليه ليه . اشتكوه وقدموا فيه عرضحال لشيخ التمن اللي هو أكبر منه ويقدر يعزله » وشيخ (التمن) هنا هو الخليفة كما حدثناصحف يعقوب حين تحررت من الخوف والفرع وصدرت في باريس من غير رقيب .

وهكذا وضحت سياسة (أبو نظارة زرقاء) عند الحكومة المصرية ،
فقد أصبح الأشخاص فيها - وإن كانت أسماؤهم محجبة -
واضحة للمستولين ، فشيوخ الحارة هو الخديو ، وأبو القلب هو
الفلّاح المصرى ، وكريم حليم ، يقصد بها الأمير حليم عم الخديو
والسيد الحبيب القريب الى قلب يعقوب وسائر المصريين ، وهكذا
أطلق الأسماء والألقاب التى تخفى تحتها كثيرا من المعانى المفزعة
لحكومة مطلقة السلطان فضلا عن تعرض الكاتب للسياسة
الانجليزية فى مصر تعرضا جعل العلاقات المصرية الانجليزية فى
خطر ، وجاء العدد الأخير ينهى عن موقف الصحيفة وصاحبها
فقد أحس أبو نظارة بقسوة الحكومة واضطهادها له ، حتى أنه
سجل هذا المعنى فى رده على (أبو خليل) حين سأله عن صحة
ما أشيع عن سفره للخارج فقال له « أعمل إيه هنا - بس أسمع
كلام بارد يغم القلب أدينى ضحكك اخوانى بخمستأش نمرة
وعشمتى أنهم ما ينسونيش لكونى محب لهم وأفديهم بالروح »
وهكذا عبر يعقوب بن صنوع عن واقع حاله فى تلك الكلمات
القصار التى ذكرها فى العدد الخامس عشر ، وهى كلمات فيها
من الصدق الشيء الكثير ، فقد كانت مجلته صوتا رقيقا حينما
وصوتا مدويا حينما آخر ، كانت صوتا رقيقا بما احتوت عليه
من نكات وفكاهات وصور باسمه وأزجال لطيفة وبيان للحياة
الاجتماعية بمباهجها ومفانئها ، وكانت صوتا مدويا بما اشتملت
عليه من رواية الحقائق السياسية المرة وعرض لمساوى الحكم
ومظالم الأمراء والموظفين ، وتبصير للمواطنين بحقوقهم ،
وتشجيعهم على الجار بالشكوى أن لم يستطيعوا الثورة على
الظالمين ..

نفي صنوع

لم ترض حكومة اسماعيل عن المعاني التي تميزت بها أعداد صحيفة يعقوب الاخيرة ، وهي الاعداد التي سفر فيها وأعلن رأيه بوضوح وجلاء ، وهو رأى جزع له الحديو وبطافته ، وخافه المسئولون في حكومته ، فقرروا اغلاق الصحيفة والتخلص من صاحبها بنفيه خارج البلاد .

ولكن .. كيف صرعت ابو نظارة ؟ وكيف نفى الكاتب الكبير ؟
لهذه الواقعة أكثر من وجه ، فالذي يقصه علينا التاريخ ، يبين أن يعقوب بن صنوع كان محتبيا بقنصلية ايطاليا ، وهو من تلاميذ المدرسة الايطالية حيث تلقى في بعثته اليه ادروسه الأولى في الفنون والموسيقى ، وكان محتبيا بتلك القنصلية ليستطيع اصدار صحيفته والتنفيس عن لواعج نفسه بما يكتب فيها من مقالات ومحاورات دون أن تعصف به سلطة من السلطات المصرية كما عصفت من قبل ومن بعد بكثير من اعلام الصحافة الاحرار الذين ابوا أن يحتموا بقنصلية من القنصليات ، ولم يكن ابو نظارة وحده الذي طرق باب هذه الحماية بل طرق هذا الباب غيره من زملائه الوطنيين ، ومن بينهم جماعة من المتطرفين ، احتموا بقنصليات فرنسا وايطاليا وروسيا وانجلترا وغيرها ، يستوى في ذلك المصريون أو المتمصرون من أبناء الشام الذين وفدوا على البلاد واتخذوا من الصحافة حرفة لهم وصناعة .

وقد قيل إن الحديو تدخل عند قنصل ايطاليا وانتزع منه الموافقة على اغلاق الصحيفة وطرد صاحبها من مصر ، ويقول بول دوبنيير وهو كاتب فرنسي ، ومن جرى في فلكه من الكتاب الفرنجة الذين كتبوا عن المترجم له ، ان (ابو نظارة) نصح له أصدقائه القريبون من السلطان بالسفر من مصر ، كما نصحوه بأن يحترس من تناول القهوة الحديوية ! فاجاب محذره قائلا بكل هدوء : لو انتظرت حتى ألتذوق القهوة الحديوية لسبق السيف العزل .. فيجبي إذن أن أغادر البلاد ، وهذه رواية صورت مآسى العصر وأشارت الى الضيق الذي كان فيه

كاتبنا ، وبينت الخطر المحقق به ، وأوضحت أن لصحفنا أصدقاء كانوا حريصين على حياته ويدخلونه لمستقبل الأيام .
وليعقوب في تاريخه الذي كتبه بنفسه حديث آخر ، يصور اضطراب الحاكم والمحكوم ، اضطراب الحاكم من الرأي الحر والفكرة الجديدة ، واضطراب المحكوم من وسائل القضاء على ذلك الرأي وتلك الفكرة ، فقد عمد اسماعيل الى قتل خصومه بشتى الطرق وفي ذلك يحكى يعقوب شيئا يشبه القصص فيقول « .. وكان أن لفت قنصل انجلترا نظر الحديو اسماعيل رحمه الله الى تلك المقالات المشبعة بروح الود نحو فرنسا والتي تفيض بكرامية بريطانيا ، وأقنعه بالتخلص منى بأية طريقة من الطرق وامتثل اسماعيل للنصح بمثل انجلترا الحائرة » ..

ثم بين المترجم له كيف امتثل اسماعيل لهذا الممثل الدبلوماسي وأنه كان امتثالا على طريقة الحديو التي اتبعها فى التخلص من خصومه ! فقد كان النصح يتجاوب مع شعور الأمير ويتلاءم مع طبيعته ، أما الطريقة فقد اختص بها اسماعيل بين أقرانه ، ويذكر أبو نظارة وسيلة الحديو وطريقته بقوله « وبينما كنت أنتزه فى شبرا مساء أحد أيام مايو سنة ١٨٧٨ خارج مدينة القاهرة بصحبة عجوز فرنسي اسمه الكابيتين جيرار ، انقض على أحد زبانية الحديو وطعننى بسكين ، فسقطت على الأرض بينما جرى الكابيتين جيرار خلف الطاعن وهو ينادى رجال الشرطة ليقبضوا عليه ، ببس أن رجال الشرطة تركوه يهرب حسب التعليمات ، ولحسن الحظ أصاب السكين الجزء الفولاذي من حزامي ولم أصب الا بخدش نزف منه الدم » .

ويؤكد يعقوب هذه الحقائق بقوله بعد ذلك « ولما فشلت تلك المحاولة تلتها أخرى ، فبينما كنت أقرع باب منزلي حوالى منتصف الليل دوى صوت طلق نارى ومرت الرصاصة على بعد سنتيمتر واحد من رأسى . ان الثقب الكبير الذى تركته فى الباب عازال موجودا . وكان الجمهور حسب المعتقدات الشرقية ، يقول انى أحمل حجابا يحمينى من الأسلحة » وهكذا فشلت محاولة قتل المترجم له للمرة الثانية ، ورأى اسماعيل أن يسلك طريقا أخرى ، ويعالج الأمر علاجا يختلف عن الوسيلة الأولى قبل أن يأمر بالفاء صحيفة (أبو نظارة زرقاء) وهى الصحيفة التى سببت

كما يقول يعقوب « عدة فتن في الصعيد ضد مبعوثيه الذين كانوا يدفعون السكان قهرا الى بيع مواشيهم وأراضيهم ليسندوا المبالغ المطالبين بدفعها ظلما » فأرسل في الليلة السابقة على الغاء الصحيفة كبير أمنائه خيرى باشا ، وقد خُف إلى ابن صنوع في ساعة متأخرة من الليل متخفيا وكان يعقوب نائما فأيقظوه للقائه رسول الأمير .

ويمضي يعقوب بن صنوع في رواية تاريخه الذي سجله بنفسه في أواخر القرن الماضي ، مبينا لنا الطريقة الأخرى التي اتبعها اسماعيل للقضاء على الصحفي الكبير « وقال لي ضيفي الكريم ، لقد جئت لأراك يامولير . » وكانوا ينادوني هكذا في ذلك الوقت . وان ذكرت لي أسماء الوزراء الذين أعطوك الأسرار التي نشرتها في العدد الأخير من صحيفتك ، أعطك بيدي أربعة آلاف جنيه . أنت تعلم أنني خير صديق لك ، ولن يعرف أحد حاحلت بيننا ، ويستمر صدور صحيفتك ، أما إن تماديت في عنادك ، فإن الحديو بواسطة بوليسه السرى الذكى سيجهد المذنبين ، وانتقاما منك فإن سموه سيقول انك أنت الذى وشيت بهم فيذلك دون فائدة » .

وساء يعقوبا هذا العرض الصغير من الرجل الخطير الذى له في نفسه مكانة الاعتبار والتقدير « ففقت حينئذ دون أن أفوه بكلمة وأوصلت خيرى باشا الى الباب وقلت له وأنا أودعه : قل لاسماعيل ان كان هو خائنا فأنا لست كذلك ، وان كنوز العالم كلها لا تساوى ظل شرفى » ويروى أبو نظارة أن صديقه الحبيب الى قلبه خيرى باشا تأثر أشد التأثر فدمعت عيناه وضمه الى صدره ثم قبله وقال « الحمد لله سيد الكون الذى وضع فى طريقى رجلا شريفا وموطنا صالحا مثلك . أرجو أن يعطو أبناء مصر حذوك فيجعلوا الطاغية التى يظلمهم يرتجف أمامهم » ثم اختفى خيرى باشا فى سرعة ملحوظة دون أن يترك فرصة للمترجم ليخبر له عن الأثر الطيب الذى تركته كلمات الباشا فى نفسه . وغضب اسماعيل غضبا شديدا لأنفة واحد من رعاياه ، فأمر بالقاء القبض على بالعى (أبو نظارة زرقاء) ثم أشتبع فى العاصمة أن محرر الصحيفة وجد صريعا فى سريره . . ويمضى أبو نظارة فى حكاية قصته قائلا « ويبدو لي أن الحديو أمر خيرى باشا أن

يحضر الى مع أحد زبائنه ليقتلني في حالة رفضي خيانة من
وثقوا بي » .

« وأعتقد أن خيرى قال لسيدته العظيم أنه وجدني محاطا بعدد
من الاصدقاء . وقد اضطرب الشعب لخبر موتى ، وخشى
اسماعيل العاقبة فأمر بظهورى في المدينة لتهدئة الجماهير .
وكان للاشاعة التي أطلقت عن مقتل أبى نظارة في سريره
اثرها الخطير في نفوس العامة والخاصة على السواء ، فقد كانت
سمعة اسماعيل كقاتل وطالم وناهب تطبق الآفاق ، وكانت
كل اشاعة عنه تلقى من يصدقها بين الناس وإن كانت مكذوبة
جملة وتفصيلا ، غير أن هذه السمعة أثارت حفيظة الكثيرين ،
وفي ذلك يقول يعقوب « وبعد ذلك ببضعة أيام طلب الى عدد
كبير من الضباط وهم من تلاميذى القدماء ، أن أسير على رأسهم
وأن أهاجم قصر عابدين لانقاذ مصر من خديويها القاتل . فقلت
لهم انكم بذلك تخدمون انجلترا ولها قطعتان حربيتان في زيارة
نهر الاسكندرية ولن تلبث أن تأمر جنودها بالتزول الى البر .
ويندر أن يترك الانجليز البلد الذى يحتلونه ، بدعوة اعادة النظام
الى ربوعه » .

ويبين لنا أبو نظارة تفاصيل ما فعله الخديو اسماعيل لطرده
من مصر ، والأسباب التى من أجلها لم يتمكن من قتله جهارا
وفي وضح النهار فيقول « ولما كنت فى حماية الماسونية التى كان
يخشأها الخديو اسماعيل كثيرا ، وفى رعاية جميع القناصل
الأوروبيين الذين كانوا يتلقون على دروس اللغة العربية
فإن مضطهدى - أى اسماعيل - لم يكن فى استطاعته قتلى ،
ولكن بوصفه خديو مصر كان فى مقدوره أن ينفينى . ذلك ما فعله
بعد أن أفقدنى ، بفضبه على ، كل تلاميذى ، وقد ذهب الى حد
منهم من دفع ما عليهم لى ، فلم يكن ينتظرنى فى وطنى بعد ذلك
سوى الفقر ، أما فى الخارج فقد يبتسم لى القدر ثانية ، وهكذا
يمحت وجهى شطر المنفى » .

إن يعقوب بن صنوع يروى قصة نفية فى بساطة ووضوح ،
ويميل بى خاطر الى تصديق كثير من تفاصيلها ، وإن كنت
أعتقد أنه بالغ فيما بعد فى وصف وداعه وحزن الشجب له ،
وأجمل ما فى هذه القصة الدقائق التى سجلها صاحبها ، فهو

لا يعرف فيها قصته مع الحديو وحده ، بل يمضي بنا الى أشخاص آخرين ما كان يدور بخلدنا أن لهم به هذه الصلات الوثيقة ، فهو مثلاً يتحدث عن الشيخ البكري ونصيبه في هذا الموضوع فيقول « وكان الشيخ البكري ، وهو من السلالة النبوية ، يعطف على عطفاً أبوياً . وقبل أن أغادر مسقط رأسي الذي شأهنت فيه سعادتي وتماسكي ، ذهبت لأقبل يد هذا القديس وأطلب بركته فقال لي : كل انسان طيره - أى قدره - مربوط الى عنقه . عليك يا بني أن تسير في الطريق الذي رسمه لك ولا تخف شيئاً . ان الله رب العدالة والخير الذي دافعت به عن المؤمنين ، معرضاً نفسك للقتل ، سوف يحمي خطواتك أينما ذهبت » ثم يعلق أبو نظارة على كلمات الشيخ الوقور بقوله « وقد بعثت كلماته الودية وتمنياته الصادقة جذوة الأمل في نفسي ، ولم أكن اعتقد أن مدة إبعادي سوف تكون طويلة » .

ويحسن بنا ونحن نختم هذا الفصل عن سيرة يعقوب بن صنوع في مصر أن نأذن له بكتابة سطورهِ الأخيرة دون أن نفتتح عليه تفكيره أو دون أن نعرض سبيله غير أن من واجب المؤرخ أن يذكر في هذا الصدد رأيه فيما نسبته الصحفي الثائر الى نفسه من مبالغات ، وما نراه في السطور التالية لا يخلو - في رأينا - من المبالغة ، وإن كان في مجمله يصور الحقائق الاصبيلة في هذا التاريخ ..

قال أبو نظارة في تاريخه الذي كتبه في أواخر القرن الماضي ولم ينشر بعد « وهكذا غادرت القاهرة محبوبتي في الثاني والعشرين من يونية سنة ١٨٧٨ ، ولني أتكلم عن وداع والدتي المعجوز المؤثر ، وكانت قد بلغت الثانية والسبعين من عمرها . وقالت لي قبله أخرى أيها الابن الحبيب . انها بلا شك ستكون الأخيرة لأنني لن أراك بعد اليوم ، وكان حديثها لسوء الحظ صادقاً ، فقد توفيت في سنة ١٨٨٥ ولكن بعد أن سمعت بنياً زواجي وانتظاري مولوداً ، وقد قيل لي انها باركتني قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة » .

« ويقول من كتب قصة حياتي من الوطنيين أن أيام سفري من القاهرة والاسكندرية كانت حدثاً وطنياً ، فقد كانت الجماهير مضطربة على غير عادتها ، ولكن الذي أثر في نفسي حتى انحرورت

عيناي بالسمع هو وصول القطار الى المحطات التي تقع بين القاهرة والاسكندرية حيث كان يقف بين الخمس والعشر دقائق، فكانت النساء تحضر الفاكهة ويرفعن أولادهن الى نافذة العربة لكي أباركهم . وكان الفلاحون يصيحون « لاتسافر وتتركنا بين مخالب شيخ الحارة » وهو الاسم الذي أطلقته على الحديواسماعيل . « ولما بلغت الاسكندرية نزلت في ضيافة صديقي البير ماير الذي عرفته في فينا . وقد أعادت الى الأيام التي قضيتها عنده جاشي الذي كنت قد أفقدته بافتراقى عن أهلى وأصدقائي . وفي التاسع والعشرين من يونية رجاني مواطني المصريون أن أتوجه الى تمثال محمد على الكبير الكائن في ميدان القناصل لا تقبل وداع الشعب » .

« ان ذلك المنظر المؤثر لن يمحوه كراي أيام . وامام عيون جواسيس اسماعيل أخذ سكان المدينة من رجال وسيدات أغنياء وفقراء ، يملكون أمامي صامتين محبين متمنين لي السعادة بصوت خفي وفي اليوم التالي حوالى الظهر ركبت السفينة الفرنسية « فريسنييه » التي أقلعت بى الى مارسيليا . لقد كان المشهد جليلا . وقد أراد الحديو أن يراني بنفسه وأنا أغادر البلاد فمر راكبا عربته وقد أحاط به حراسه ، في الوقت الذي نزلت فيه الى الزورق الذي سينقلني الى السفينة . ولم تجرؤ الجماهير على الارتفاع بـ « يسقط اسماعيل » لكثرة عدد رجال الشرطة ، فأخذت تصيح « ليحيى أبو نظارة » وتغالت النداءات بعد ذلك « نريد نبوة منك أيها الشيخ » . وأعترف أنني احترت فيما يجب أن أقوله . ولكني شعرت كان وحيا الهمني ووضع في فمي تلك العبارة : سوف ينفي اسماعيل بعد سنة كما أنفى أنا اليوم . »

« وقد شامت المصادفات أن تتحقق نبوءتي حرفيا مما جعل الناس في الشرق كله يلقبونني بالولي ولكن لنعد ثانية الى سفرى فقد هبت علينا عاصفة كادت تودى بسفينتنا ، غير أن الله لم يرجاء شعب مصر المظلوم بأن يحفظني ، وبلغت مارسيليا سليما صحيحا ، غنيما بالآمال لا بالمال . ان سر تجاحي في الماضي والحاضر هو ثقتي التي لا تنزعزع في العناية الالهية » . هذا هو ختام سيرة يعقوب بن صنوع في بلاده ، وهذه هي

قصته منذ نشأ حتى نفى ، لم أر فيها ما يستحق التعليق الاختصاصي : المشحون بالمبالغة كما أشرت الى ذلك في أكثر من موضع ، وحسبنا هذا الجزء الأخير دليلا على صدق رأينا ، فقد زعم المترجم له أن الناس خرجوا لوداعه رجلا ونساء من جميع الطبقات ، وما أظن أن السيدات في سنة ١٨٧٨ كان في مقدورهن الخروج الى الميادين والشوارع في مظاهرة أو شبه مظاهرة ، وقد نسي تقاليد بلاده والحريم الثقيل الذي يفرض حجابا غليظا يحول بين لقاء الرجال والنساء ولو كان ذلك في وداع صحفينا الكبير !! وقد أكد هذه المبالغة في أكثر من موضع في « رحلة أبي نظارة زرقاء » . . .

ثم تبدو المبالغة واضحة اذا دققنا في روايته عن وداع الناس له في « ميدان القناصل » قبيل سفره بيوم أمام عيون اسماعيل من الجوasis ، فقد ذكر أن الناس حيوا بصوت خفيض خشية أذان أولئك العيون ، ثم ذكر لنا أن اليوم التالي كان حافلا فتهتف الناس له بحضور اسماعيل ، وما أظن أن القوم الذين يخشون عيون الأمير لا يخشون الأمير نفسه ! وربما تخيل الرجل قدره ، وأنه كان جديرا بهذا الوداع سواء في ميدان القناصل أو قبيل نزوله الى السفين . . .

وقد أيد وجهة نظرنا هذه بول دوبنير فقال عنه « ان مولير مصر خلق لنفسه دورا لا يخلو منه الزهو والغرور ، ويبحث على الاعتقاد بأن صنوع هو وحده قائد الحركة وواضعها والمتنبئ بهوادئها ، وهذه كلها أقوال لا تخلو من المغالاة والمبالغة التي تكثر عند الكتاب والتي ينبغي ألا نعيرها كبير اهتمام ، وهي على أي حال تكثر عند الغربيين والشرقيين على السواء ، فقد رأينا اسكندر ديماس ينسب لنفسه قيام ثورة يوليو ولامارتين معتنعا كل الاقتناع بأنه قائد ثورة فبراير ، فليس هناك إذن ما يدعو للوم صنوع على اعتقاده الساذج بأنه وحده صاحب الثورة المصرية ، وكيف لا يساوره هذا الاعتقاد وقد أخذت صحف عالمية كبرى وعلى رأسها جريدة (الإصلاح المالي) تشييد بمقالاته الوطنية الساخرة وتعلق عليها أهمية كبرى لم تكن تخطر له على بال » . . .

هذا رأى بول دوبنير . وهو رأى جدير بالنظر والاعتبار

لذلك وجب علينا ونحن نصور حياته من قلمه أن نؤكد هذا الرأي وإن كان هذا الرأي قد كتبه صاحبه ويعقوب في باريس، وعندى أن المترجم له ، معذور في تخيلاته التي سجلنا طرفا منها وهو يحكى عن سيرته مع الحديو اسماعيل ، معذور لأن القوم في أوروبا اعتقدوا فيه اعتقادا جاوز الحد ، وهو جدير بهذه الثقة وذلك الاعتقاد لأنه كان ممتازا إذا تحدث أو كتب شعرا أو نثرا كما كان دارسا القضية المصرية دراسة عميقة أصيلة ، ويعقوب معذور إذا بالغ وهو يروى حكايته بعد أن لقي من المدح والثناء غايتها .

ومن أسباب المبالغة في تصوير حياته أقوال الصحف عنه ، ومن بينها صحيفة « الإصلاح المالى » المذكورة فقد كتبت عنه قائلة « هل لنا أن نقدم الى قرائنا ذلك الرجل الذى خدم بمفرده اصحاب رؤوس الأموال المصرية أكثر من مراقبي الدين بالاشتراك مع أعضاء لجنة التحقيق وجميع صحفى أوروبا » ثم تستطرد الجريدة فى روايتها الطريفة « وقد يبدو أن هذا القول فيه شيء من المغالاة غير أنه فى الواقع صادق كل الصدق ، فقد نشر صنوع جريدة « أبو نظارة » وأخذ ينبه المظلومين فى مصر الى أن اسماعيل إنما يرهقهم بالضرائب لا ليرضى مطالب الأوروبيين وإنما ليزيد من ثروته » .

« وقد أدرك الغرب كل ذلك وشعر الفلاحون بأن حقهم للأوروبيين قد فتر ليزداد حيال الحديو ، وقد تحدث يعقوب صنوع الى المصريين بذلك الأسلوب التصويرى المعروف عن الشرق فأيقظهم من سباتهم بعد أن كانت كواهلهم مثقلة بالضرائب ، وكان جزاء « أبو نظارة » على ذلك الطرد من البلاد والانتقال الى فرنسا لمواصلة جهوده فى سبيل مصر » .

واذن فهناك مبررات للزهو والغرور والمبالغة ، منها أقوال الصحيفة المذكورة وهى تقدمه للناس ، ولم تكن جريدة (الإصلاح المالى) وحدها التى خلقت هذه المبررات بل ساهمت معها أكثر من صحيفة وأكثر من كاتب وأديب ، فلا تغريب على أبى نظارة حين يبالغ ويتخيل الشعب فى وداعه نساء ورجالا ، يهتفون له بالرغم من وجود الحديو القاسى العنيف وعيونه من الجنود الغلاط ، غير أن ذلك الزهو وتلك المبالغة لا يسقطان من اعتبار يعقوب

ابن صبنوع ، فقد كان الرجل فعلا من رعييل الاحرار الاول الذين
ذاقوا الامرين في سبيل حرية بلادهم ونصفه مواطنهم ، وان
كثيرا من التفاصيل التي رواها في تاريخه المخطوط ، لها اصولها
في مجلته المطبوعة في مصر ، تجدها موزعة في الاعداد الخمسة
عشر النادرة التي لا يحتفظ بها انسان ، والتي اسعدني الطالع
بالحصول عليهما مكتوبة بخط يده ، وكان ذلك أمرا بعيده
المنال . . .

ومهما يكن من أمر فنحن نختم في هذه السطور سيرة يعقوب
ابن صبنوع في مصر وهي فترة قصيرة من نشاط الممثل الكبير
والصحفي الحظير ، عرضناها في بسطة من الرواية اذ جمعنا فيها
كل شاردة وواردة عن طفولته وصدر شبابه ، متحررين فيما
رويناه من ضغط الظروف والملابسات .

إلى منفى الأحرار

إلى باريس ...

حط أبو نظارة رحاله في باريس عاصمة العالم المتحضر ، وعاصمة الأحرار المنفيين من الشرق والغرب ، وهي ملجأ أولئك الأحرار في كل زمان ، ولما ذموا لفظهم حاكم مستبد أو كرههم شعب ثائر ، وهي لا تقبض صندرها - وأحياناً يدها - إذا لجأ إليها صاحب فكرة ، مهما يكن أمر هذه الفكرة ، فالحضارة الفرنسية لا تخصم صاحب رأى رجى فزع إليها ، أو صاحب رأى تقضى ارتضى في احضانها ، هي مفتوحة الصدر لكل من يقد السبر إليها ، يجد عندها السلوى ويجد فيها أدوات الكفاح من أجل الرأى ميسرة ، ويجد عندها العمل في أى ناحية من نواحي العمل ، ويجد عندها أهم من هذا كله ، يجد الحرية التى لا تعرف الحدود أو القيود ، فينطلق يعبر عن خوالج نفسه بالطريقة التى تعجبه وبالأسلوب الذى يرضاه ، يجد نفسه فى محيط ولد الناس فيه أحراراً ، ليس لأحد فضل على أحد ، فكل امرئ صاحب فضل ، له أن يعلن فضله بوسيلته الخاصة دون وقيل أو حسيب ..

وقد هاجر صاحب فضل إلى منفى الأحرار .. هاجر يعقوب بن صنوع إلى فرنسا ، فلم يكن له متنفس إلا فيها ، فوصل إلى باريس لا يملك مالا ، فقد كان ما يحمل من المال مائتى فرنك فقط ، ولما كانت نفسه تضطرب بشتى الأماني والآمال ، كمواطن حر صمم على محاربة الظلم فى بلاده وإعلان سيادة حكومته ، ومكافحة الاستعمار الذى بدأ يطل على وادى النيل ، على طريقته الخاصة التى اتبعها أخيراً فى القاهرة ، وهى نشر صحيفته ، وبذلك يصل ما انقطع ، يعبر فيها عن رأى الحزب الوطنى المصرى الذى بدأ يتكون وتبين معالمه لكل ذى عينين ، لا يخاف أميراً أو طاغية أو جنداً أو قهوة مسممة أو نهراً استمعت تماسيحه بأجسام كثير من الأحرار ..

ذهب « الولى » إلى عاصمة النور فى صيف ١٨٧٨ طريداً من

بلاده ، شهيدا من شهداء الحرية في عصر اسماعيل ، فقيرا لولا
الحياء لكان التسول مهنته في الشهور الأولى ، غير أنه قاوم الفقر
ومذلة السؤال ، وقد كان يلقي نخبة من المصريين الأغنياء
المقيمين في باريس بعيدا عن وادي النيل ومايجرى فيسه من
أحداث ، وكان هؤلاء المواطنون يعطفون عليه ، ويدعونه الى
الغداء والعشاء برا به وعطفا عليه ، وكان يصيبه من هذا العطف
والبر حرج شديد ، حتى استطاع أن يحصل على عمل ، وهو
عمل المعلم الذي يدرس لتلاميذه اللغة العربية ويحصل مقابل
ذلك على قدر من المال يسد به رمقه ويعينه على تهيئة الجو المناسب
لغاودة الكفاح من أجل مصر .



من صور يعقوب في أوائل
عهده بباريس

لقد كسب يعقوب
المعركة الأولى في باريس
بالعمل كمدرس ، وبصحبة
نخبة متفقة من الشرقيين
والمصريين ومن رجال الفكر
الفرنسيين الذين أطلقوا
عليه لقب « المنفى المصري »
وعاونوه معاونة صادقة ،
وببصرنا بأيامه الأولى بول
دوبنيير في كتابه « مصر
الساخرة » .

فيذكر أنه كان لشخصية
صنوع أثرها الفعال في
التمكن له من الحياة والنصر
على متاعبها ، فهو كما يقول
معاصروه ، شاعر بكل
ما تحتوي عليه هذه الكلمة
من معان تتجاوز قرص
الشعر وروايته ، فهو
ماهر في تصرفه مع
الناس على اختلاف

الوانهم ودرجاتهم ، قوى القلب والشكيمة حتى ان النفس لم يستطع اعتباره كما أن مرارة الغربة لم تقتل نوازع الخير فيه ، ولم يكن من طراز تلك النفوس الفارغة التي تلجئها المحنة الى الانفراد والانعواء ، استنادا الى خيبة أمل أصابتها أو جراح نفسية ألتمت بها ، بل كان أبو نظارة على نقیض ذلك يطب حياته بأسلوب تفرد به ، فكان يمتاز بروح مرحة تقيض سرورا اذا صادفتها مباحج الحياة ، ولا تشكو أو تنن اذا أصابتها صروف الدهر بسوء ..

ان يعقوب بن صنوع يواجه في باريس حياة جديدة عليه كل الجدة ، وكان يواجه تلك الحياة بما انطوت عليه من خير وشر بنفس الابتسامة الهادئة المنطبعة على محياه ، لقد لقي حقا ظروفًا قاسية في وطنه الجديد من حيث النواحي المادية ، ولكنه تغلب عليها بالجد والاجتهاد والنشاط منقطع النظير ، وهما من صفاته وخلاته التي توائم طبعه المكافح العنيف ، لذلك لم تكن حياته في باريس أمر مذاق من حياة القاهرة أو أكثر شدة من حيث المحصور والاعداء ، بل كان الأمر على النقيض ، فقد كانت حياة تنفس فيها حرا طليقا بين صفوة من أحرار الفرنسيين .

وجد أبو نظارة وسائل العيش قريبة التناول على ضفتي السين كما كان يلقاها مبصرة في معظم أيام حياته على ضفتي النيل ، فقام بالتدريس لكثير من الناس الدروس المختلفة الألوان التي كان يلقاها في باريس كما كان يلقاها في القاهرة ، بل أنه وسع نطاق تلك الدروس ، فأخذ يدرس حتى علوم الحساب والرسم والفلك ، وهي علوم كان يجعلها في مصر ، ولم يفكر قط في تدريسها لمن كان يدرس لهم من الأمراء وغيرهم ، غير أنه في عاصمة النور أكب هو نفسه على دراسة هذه المواد ليستعين بها على إعطاء الدروس فيها لمن يشاؤها ، ولم يكن عدد الدروس بالطبع كثيرا كما كانت الحال في القاهرة ، ولم يجد بين تلاميذه أغنياء كأولاد الأمراء والباشوات ، ولكن سوقه راجت تماما في تدريس اللغة العربية لمن يريد دراستها وكان يعتبر عمله هذا عملا وطنيا فيه شرف له حين يكتب التاريخ ، فأخذ يدرس مبادئ تلك اللغة للضباط الذين يتهبأون للسفر الى افريقية ، والى أبناء التجار المزمعين الرحيل

الى السنغال حيث يحتاج النازحون الى تلك الجهات الى فهم اللغة العربية حتى تستقيم لهم الحياة هناك ، كما أنه قام بتدريس اللغة الفرنسية لمن يريد تعلمها من أبناء العرب النازكين في باريس ، وقد تخصص هذا المصري في هذه الناحية من النشاط وكان يعلن عن نفسه وعن تخصصه ذاك بكل وسيلة ، واحتفظت صحفه جميعا في سنواتها الأولى باعلان مستمر الظهور في كل عدد منها عن استعداده لالقاء الدروس لمن يشاء . .

تلك كانت وسيلته لكسب العيش الحلال في أيام المنفى الاولى . فقد بدأ تاريخه في باريس معلما للغات ، واشتهر في جميع الأوساط ، واستطاع بلباقته وقدرته في اللغة الفرنسية وأدائها أن يوثق علاقاته بكثير من أهل الرأي ويؤكد أواخر الود مع نخبة من رجال السياسة مختلفي المذاهب والآراء ، ويقيم هذه الصلات القوية بين الحصوم والأصدقاء ، ويلقي منهم جميعا الاحترام اللائق بمواطن حر غريب عن بلاده يسعى في سبيل شرفها وكرامتها ، ويلتمس لهذا السعي كل وسيلة مشروعة . يلجأ اليها الأحرار . .

وقد يخرج يعقوب بن صنوع من حفلة عشاء عند روشفور فيذهب مباشرة وبكل هدوء ودون أن يشعر بأى حرج الى قصر الأليزية (قصر رئيس الجمهورية) لحضور حفلة رقص يقيمها الرئيس « جرفي » ، وكان المترجم له موضع اعجاب وتقدير المسيو دوفريسيني وخصمه المسيو كليمنصر على حد سواء ، وكان من ناحيته مؤمنا بكليهما ، مخلصا لشخصيهما دون مواربة أو رياء ، وإن صداقته (لناكيه) داعية الطلاق لم تمنعه من صداقة جيل سيمون عدو الطلاق اللدود ، وكان صاحبنا ممجبا بفينكتور هيجو اعجابا لا تقف دونه الحدود أو السدود ، بيد أن هذا الاعجاب بالكاتب الكبير لم يحل بينه وبين اعجاب آخر لحصوم هيجو ومناقسيه من أمثال ريشوبان وكلو فيس هيج . وليس معنى اتصال يعقوب بن صنوع بأقطاب الجمهوريين أنه خصم عنيف للملكية ، لقد كان نفسه من المؤمنين بفكرة الجمهورية وصلاحياتها لحكم الناس ، غير أن ذلك لا يمنعه من الولوع الى الدوائر الملكية يتعرف على زعمائها ويود صحتيها ، لا يفرق بين انصارها المتنازعين ، فهو صديق لدعاة أسرة (أورليان) كما

أنه صديق لدعاة أسرة (بونابرت) ، وكان جناحا الملكية المذكوران
يرحبان (بالنفى المصرى) ترحيبا ملحوظا ويحسان وفادته ،
وعما يؤكد ذلك أن جريدة الفيجارو كانت تفرد مكانا فى ادارتها
لعرض رسوم (أبو نظارة) الرائعة ليشاهدها الفرنسيون
ويتعرفوا عن طريقها رسالة الطريد الحرفى عاصمة النور ويقفوا
على تطور الأزمة المصرية فى عالم السياسة الدولية ..

ومن الأدلة على تكريم الأوساط الملكية له ما كتبه عنه
جريدة (لوجولوا) حيث قالت « من ذا الذى يجهل أبا نضارة
ذلك المصرى الذى لقبه الحديو اسماعيل بموليد اللغة العربية .
انه يعقوب بن صنوع الذى أسس جريدة شعبية عربية » ثم
تستطرد الصحيفة قائلة « تراه أحيانا مهاجما لأدعا وهو دائما
خفيف الروح ، لقد اضطر الى مهاجرة القاهرة والمجيء الى باريس
للاستمرار فى المهمة التى نذب لها نفسه .. انه المعبر عن رأى
الحزب الوطنى .. انه أول من قال العبارة الآتية التى أخلت
طريقها الى الامام وهى عبارة ، مصر للمصريين .. »

وعما يذكر ليعقوب بن صنوع أنه كان داعية مصر فى جميع
الأوساط الفرنسية ، وفى محافل أوروبا أيضا ، فقد كان ينتقل
بين تلك الدوائر ، جمهورية وملكية ، يؤم مجتمعاتها ويحضر
بحوثها ويلقى فيها محاضراته وما كتبه من الشعر الفرنسى ،
ويترجم لها الرسائل الأخيرة الواردة اليه من مصر ، ويكتب
فى صحفها المختلفة ، وتنشر له تلك الصحف أحاديث طريفة
يذكر فيها بلاده أحسن الذكر ، استمع الى ما كتبه عنه المسيو
جيهان سودان الكاتب الفرنسى ومحرر جريدة « هنرى الرابع »
التي كانت تصدر فى باريس اذ ذاك .

يتحدث المحرر عن يعقوب بن صنوع فيقول « لقد أبدى الجميع
فى أوروبا ، من انجليز وفرنسيين وألمان وغيرهم رأيهم عن الأزمة
المصرية ، فمن غير المقبول أن أذهب فأطلب الى أحد المصريين
أن يبدي رأيه فى تلك المسألة .. بلهى أن آراه فى مثل هذا
الموضوع ستكون آراه معكوسة » ..

ثم يقول « اننى قابلت هذا الزميل الذى جاء من بلاد بعيدة ،
فياله من رجل شيطان ! .. انه يرتجل الشعر الفرنسى ..
وقد استقبلنى بعبارات ترحيب عنيفة حسنة الأسلوب لا تخطو

من الدعاية ، فقد وجد من الطبيعي - واسمى - سودان -
أننى أردت معرفة شيء عن مسألة السودان !

« أخذ أبو نظارة يقلب صفحات مجموعة صحيفته ، ويشرح ما بها من صور وترجم لى بعض فقراتها .. انها مجموعة غربية حقا فهي تحاكي فى أن واحد جريدة لا لالترن دوروشفور وجريدة دوبركيون حيث تبسوا الصور الشرقية كأنها مقتبسة من أشعار النبى (أرميا) أو من أوصاف النبى . (حزقيال) .. »

« فسواء شعرا أو نثرا ، وسواء توصلا أو رجاء ، فهو دائما يشكو الأم الفلاح ويعرب عن آماله فى أن تسود السعادة والرخاء أرض مصر المباركة » ..

« لقد سألت أبا نظارة رأيه فى الأزمة الحالية قائلا : هل حقا يستطيع المصريون أن يكونوا شعبا ؟ فقال لى مامعناه - يالكم من قوم عجب أيها الاوروبيون - انكم ترسلون مندوبين أو ثلاثة من الظرفاء فينزلون القاهرة ولا يلبثون أن يرسلوا مذكرات عن مصر يصفونها حسب أهوائهم كأنها قطعة أوبريت .. وإذا قرأتم ما يكتبون صحتهم قائلين : هذه هي مصر وأولئك هم المصريون ، انها بلاد الرخاء ، يسكنها للأسف أناس كسالى متعصبون وجهلة ، أما أنا فأقول لك ان الشعب المصرى ليس كسولا بل هو على نقیض ذلك أنشط شعوب العالم طرا وأوفرها انتاجا ، ليس الشعب المصرى متعصبا بل هو على عكس ذلك أكثر شعوب العالم تسامحا على شريطة ألا يستغز أكثر من اللازم ، والتاريخ على ذلك شهيد ، وأخيرا أقول ان الشعب المصرى ليس على درجة الجهل التى تتخيلونها ، فالمدارس المدنية والدينية التى أسستها الحكومة ، ومدارس القاهرة الحربية وخاصة مدرسته أركان الحرب ليست بدائية كما يظن الباريسيون الظرفاء » .

ولا يقف الدعاية الكبير عند هذا الحد من الإشادة بوطنه فى أدق الظروف وأقسى المحن ، بل يمضى قائلا للمحرر « الافاعلموا أن الكتب المدرسية المستعملة فى مدارس مصر مترجمة حرفيا من

أهم الكتب التي تدرس في المدارس المائلة في باريس وولوتش وبرلين ، بل أكثر من ذلك فإن تراجم روائع الأدب الفرنسي منتشرة في مصر كانتشار أصولها في فرنسا ، وجميع تلاميذ القاهرة والاسكندرية يحفظون عن ظهر قلب حكايات لافوتين ، بل ذرف جميع الشبان الدموع عندما قرءوا قصة الحب البائس لبول وفرجينى (وهي قصة مشهورة) كما بكوا عندما قرءوا رواية اليوساء ، وأخيرا فإن قصة الفرسان الثلاثة ليس لها معجبون أفضل من الشبان المصريين ، وعندما أسست المسرح في القاهرة جاءنى فى أسبوع واحد ثلاث تراجم لكى أمثلها على خشبته وهى تراجم « البخیل » ، والمريض بالوهم ، وترتوف » ..

ويستطرد المحرر (سودان) متحدثا عن آراء يعقوب بن صنوع فى بلاده التى يحن اليها دائما ولم يخف قط هذا الحنين ، ذاكر أن المترجم له يعتقد أنه « لا ينقص الشعب المصرى سوى زعيم جدير به ، وهذا الزعيم - فى رأى يعقوب - هو الأمير حليم أصغر أبناء محمد على رأس الأسرة العلوية ، وقد وضعت مصر الفتاة فى شخصه كل آمالها وأمانها » وكان هذا الرأى أشبه بالعميدة يبشر بها أبو نظارة منذ كان فى مصر الى يوم تولى عباس الثانى ومات حليم ، حتى أن صحف (أبو نظارة) المختلفة كانت تردد هذه الأمنية وتذكر دائما زبنا « كريم وحليم » ، وحليم هنا هو الأمير حليم مناصب يعقوب وأمل أصدقائه فى تغيير شامل يصيب الأريكة الحديوية ويرفع الظلم عن كواهل المصريين .

ولم يتردد أبو نظارة فى اشاعة فكرة تولية الأمير حليم لعرش مصر عند جميع الجهات ، يرددها ليسمعاها الفرنسيون فى باريس والاروبيون فى كل مكان نزل يعقوب كاتباً أو خطيباً ، ويروى لنا ذلك المسيز مارتان المحرر والرسم صحيفة (ايلستراسيون) الجمهورية الكبرى ، فقد صرح له يعقوب بأنه لا يرى حلا للثورة القائمة فى مصر - أيام توفيق - سوى اعتلاء حليم لعرش البلاد ، مبينا الأسباب الموجبة لذلك ، وهى أسباب عرضنا لها من قبل وضوف نعرض لها على شتى الوجوه .



البرنس حليم امل المصريين
في عهدى اسماعيل وتوفيق

انتزع الداعية الكبير
والصحفي الموهوب ثقة واعجاب
أهل الراى فى فرنسا فقد كان
يعقوب جديرا بهذه الثقة قمينا
بهذا الاعجاب ، فهو فنان يجيد
الموسيقى وخاصة العزف على
« الصغارة » كما كان ينظم
الشعر ، والشعر الفرنسى
خاصة ، وكانت له لفتات ذهن
فى قرض هذا الشعر سجلها
له « سودان » فى حديثه الذى
الذى ختمه بقوله « ولست

أدرى ان كان مقدرا لصنوع ان يكسب القضية التى يدافع
عنها أم لا .. ولذلك فلست هنا بصدد مدحه أو قبحه ..
غير أننا لانتقى كثيرا برجل مثل « أبو نظارة » له طابع
مستقل قائم بذاته ، وعزيمة لاتعرف الوهن أو الهزيمة ..

هذا رأى الفرنسيين فيه حين نزل بلادهم ولم يمض عليه
الا القليل من الزمن ، استطاع فى تلك الفترة القصيرة ان يقيم
الدنيا ويقعدها ، ولم يقف نشاطه كداعية كريم عند العاصمة
الفرنسية ، بل كانت له فى اقاليم فرنسا جولات ، بل كانت له
فى بلدان أوروبا سيرة طيبة ، هى سيرة المصرى الحر الذى نب
نفسه للدفاع عن وطنه ومقدراته ، واستحق من الوطن - على
الاقل - تكريم الذكري ، والذكرى تنفع المؤمنين ، والمؤمنون
هم المصريون الذين قلما يذكرون نحن كرام مواطنيهم ، ولا يستعيدون
أمجاد هؤلاء المواطنين الذين احترقوا على بعد المزار فى سبيل
فكرة الحرية والاستقلال لبلادهم .

ومهما يكن من أمر فإن يعقوب بن صنوع لم يقف نشاطه على
الصحافة والعمل فيها ، بل استغل (أبو نظارة) مواهبه فى
سبيل بلاده ، فقد كان رجلا واعيا دارسا فاهما لحياة الامم

والشعوب : كما كان واسع الأفق دقيق الملاحظة و شاعرا صادق الشعاعية ، فيه نواح و من الجمال الحق وصفحات سامية ذات قيمة وجسدية بأن تلفت النظر ، هذه الصفات التي خلعتها عليه معاصروه الأجانب قد استفلها المترجم له في السعي وراء مصالح بلاده في حقول أخرى غير الصحافة ، فخطيب وحاضر حتى هز الرأي العام الأوروبي ، ومن روائع محاضراته محاضراته عن مصر في القرن التاسع عشر ومحاضراته عن الغزوة الانجليزية لبلاده ، ومحاضراته عن المهدي واخلاء السودان ، وقد ألقى تلك المحاضرات في أقاليم فرنسا ودول أوروبا المختلفة . . .

وكما لقي يعقوب من صحافة باريس التمجيد والتأييد ، كذلك لقي مثله من صحف الدول والأقاليم التي زارها داعيا لبلاده فيها ، فقلت عنه جريدة (لاجازيت دو بوردو) بعد أن وصفت شكله ومتاعب عينيه و قد أصدر صحفا ساخرة كانت تطنن خصمه بمقالاتها اللاذعة ، وقد اشترك في جميع الحملات التي شنت على الحديو السابق . . . وخلاصة القول فيه انه قد أثار العجب بين جميع الذين استمعوا اليه لسعة ادراكه وشدة ذكائه .

ومضى الداعية المصري من رحلته في الأقاليم الفرنسية الى زيارة البلدان الأوروبية فخف الى اسبانيا وقابل ملكها وملكته وأنشد فيهما القصائد ، وتحدث عن وطنه في كل فرصة أتت له ، ثم اختلف الى بلجيكا ، وهناك خطب وكتب ، وذكرته الصحف أحسن الذكر ، ثم انتقل الى إنجلترا ، وهي خصمه المتيد وعدو بلاده الاصيل ، انتقل اليها غازيا بمحاضراته وكتابات ، وتكاد جميع الصحف الانجليزية تحسن استقباله فتقول احدها عن زيارته « نرى اليوم بيننا صاحب جريدة عربية ساخرة مصورة تناوى الحديو السابق وسياسته ، وابنه توفيق وضعفه » . . . وتحدث عنه (ذا ديلي نيوز) فتقول « ان أبا نظارة يثير الانتباه من نواح عدة . . . » وتأخذ الصحف الأخرى في تقديم بعض المختارات من إنتاج الصحفي المصري الساخر ، وتُنشر جريدة (ذا تروث) بعض صوره الكاريكاتورية وتعلق عليها تعليقات طويلا ممتدحة الكاتب وما كتب ، معجبة بالمصور وما رسم . . . وهكذا مضى المترجم له في زيارة دول أوروبا ، لم يترك دولة منها ، الا وزارها رسولا ضد إنجلترا وفعالها

فى مصر أو السودان ، حتى ألب الرأى العام الأوروبى عليها
فى كثير من الظروف والمناسبات ، اذ بصر السياسة الذين لقيهم
بمغبة التساهل مع الاحتلال الانجليزى ، وبين لهم خطره على
مصالح الدول الأخرى وما تركه من الأثر السيئ فى نفوس
المصريين والسودانيين . .

ولم يقف أبو نظارة زيارته على أوروبا بل قام بزيارات
لتركيا وبلاد شمال افريقية وغيرها من البلدان التى استقبل فيها
استقبال الغزاة الفاتحين ، وحاضر فيها عن ماضى بلاده وحاضرها ،
وكشف أثنائها ستر الانجليز وما يصنعون فى وادى النيل .
وقد سجل هذه الزيارات المختلفة فى كتب خاصة كما نشر
معظمها فى أعداد صحفه المختلفة ، وقد أكد كثيرا من الصداقات
مع أمراء تلك البلاد وملوكها ، ونال الحظوة لديهم فأمدوه بالمال
وأنعموا عليه بالنياشين ، وساهموا فى كثير من أعداد صحفه
أبى نظارة بالاشتراك طويل الأمد ، ورد هو الجميل بنشر صور
أولئك السادة والتحدث عنهم فى عشرات الأعداد التى تضمنت
سيرهم وأخبارهم ، مع كثير من المدح الذى ما كان يليق أن
يسجله يعقوب وهو ناثر على الطغاة فى مصر ، والناثر على
الطغاة لا يرحب بكل تافه وجليل من الطغاة فى البلاد الشرقية
الأخرى . .

لقد كانت فى صحفه الطرائف والغرائب ، كما كان فيها من
زوجه وفنه ما سما بها الى مصاف الصحف الهزلية العالمية ،
ولا تحسب عليها الهنات التى وضحت فى مدح زيد أو عمرو ،
فقد كان لصلات صاحبها ببعض الخاصة هنا وهناك أثرها فيما
نأخذه عليها من هذه الهنات . .

ولا تحسب على صحف أبو نظارة أخطاء الطبع التى كثرت
فى بعض سنواتها كثرة ملحوظة ، أو هذا الخط الردى الذى
تقلب على كتابته بعض الشرقيين وفى مقصدهم الششاميون
المقيمون فى باريس ، وكان بينهم معجبون فى هذه الخطوط ،
ظهرت جودة خطوطهم فى معظم صحفه ، ولعل أربا الخطوط
خط يعقوب نفسه . .

ولا يحسب على تلك الصحف هذا الورق القبيح الذى
استعمله المترجم له فى طبعها ، فقد كان ذلك الورق القبيح

نادرا في مئات الاعداد التي اصدرها ، وكان الورق الجميل
غالبا على معظم نسخها ، ومن بينه ورق ابيض ناصع البياض ،
او ورق اسمر جيد طبعت عليه الصور ملونة تلويننا بديعا ،
ما كان يمكن ان تشرق عليه تلك الصور ما لم يكن ورقا جيد
الصناعة والمجبن ..

كانت صحفا في الصدارة ، جديرة بهذه الصفحات التي
نوجز في التاريخ لها حين نعرضها صحيفة بعد أخرى ، ليرى
الناس كيف ابدع ابن صنوع ، وخلق لوطنه اسما طبق
الحافقين ، ومضى في ركب الحضارة يعلن عن بلاده ويترجم عن
عواطفها ويحكي آلامها وآمالها في صدق وأمانة ، وفي ثقة
واطمينان ..

صحف في باريس

أصدر يعقوب بن صنوع في باريس أكثر من صحيفة ..
أصدر الكاتب الأديب صحيفته الأولى ، وسماها « رحلة
أبو نظارة زرقا الولى » على الصورة التى سنشرحها بعد
قليل ثم أصدر بعد ذلك ، مجلة « أبو نظارة زرقا » وهى رجع
الفضل لصحيفته الأولى التى أصدرها فى القاهرة ..
ولأسباب سنعرض لها وشيكا بدل الاسم فجعله « النظارات
المصرية » ثم « أبو صفارة » واضطر الى تغييره مرة أخرى فاطلق
على صحيفته اسم « الحلوى » ثم عاد الى « أبو نظارة زرقا »
وهكذا تعددت أسماء صحفه ، فإذا هى تتجاوز اثنى عشر اسما
قلما كانت واحدة منها تختلف فى الطابع والمزاج ، اختلفت فى
الشكل والاحجام ، واختلفت كذلك فى جودة الورق والطباعة ،
غير أنها جميعا - وبلاستثناء - أدت الرسالة التى أخذ صاحبها
على نفسه أداءها ، رسالة الدفاع عن الشعب المصرى ، ثم الدفاع
عن وحدة وادى النيل متمثلة فى مصره وسودانه ، والحملة
المتصلة المستمرة الملحة على أسرة محمد على ، فيما خلا بعض
الفترات التى سيجيء الحديث عنها ثم الهجوم العنيف الرائج
على السياسة الانجليزية عامة والاحتلال البريطانى لمصر خاصة
ان صاحب هذه الرسالة كان فى محنة ، فقد اضطر الى
الهجرة من بلاده حيث نشأ ودرج ، وحيث ساهم فى كل جديد
عرفته مصر فى عهد اسماعيل ، بل حيث خلق هو الجديد متمثلا
فى المسرح الذى أنشأه ، وفى الصحيفة التى أصدرها ، فإذا عاود
نشاطه الصحفى فانما يعاوده لآبناء وطنه ومن أجلهم ، ومع ذلك
فقد لقي المحنة مرة أخرى ، اذ نشطت الحكومة المصرية لمصادرة
صحفه كلما حملتها السفن الى الوطن الذى يخاف قط تخناثه اليه ،
نشطت الحكومة الى ذلك فى عهد اسماعيل ، وزاد نشاطها ابان
الاحتلال البريطانى لبلاده ، فاضطر الى تغيير اسم صحيفته أكثر من
مرة حتى يوهم المصريين المسئولين أنها صحيفة لامت الى يعقوب بن
صنوع بصفة ، فإذا تنبعت الحكومة المصرية الى الحقيقة اجتمع

مجلس النظار وأصدر قرارا بمنعها من دخول القطر المصرى
وما أكثر ماكان المجلس يجتمع لهذا الغرض ! سواء اتصل
الموضوع بأبى نظارة أو بغيره من صحف الأحرار التى يصدرونها
فى الخارج ليصبروا مواطنيهم بما هم فيه من ذل واستعباد
وطال الأمر بيعقوب ، فقد أمضى نحو ثلاثين سنة يصدر
صحفه ، وكانت تلك الصحف تصل الى قرائها بالرغم من عيون
الحكومة وأدواتها ، وفى هذا يحكى لنا يعقوب قصة بديعة ، فقد
ذكر أنه وظف أول نقود ربحها فى باريس فى نشر صحيفته
« أبو نظارة » وقد كان لبعثها رنة فرح فى قلوب المصريين ، اذ
كان الناس يعتقدون أنها اختفت الى ما شاء الله ، ولما كان مكتب
البريد المصرى لاينتظر اطلاقا أن يرى صحيفة « أبو نظارة » تخرج
من رمسها ، وخاصة أن الحديو اسماعيل ادعى أنه قبرها الى غير
رجعة ، فإن الأعداد الأولى لصحيفته دخلت جميع مدن وادى النيل
وقراء الرئيسية دون أن يلحظ ذلك أحد من المسئولين ، وقد
احتفى بها المواطنون احتفاء عظيما .

ويذكر أبو نظارة أن أحد زعماء الحزب الوطنى من أصدقائه
العديدين كتب له يصف ذلك بقوله « لا يمكن أن تتخيل الاستقبال
الحماسى للأعداد الأولى من صحيفتك ، تلك الصحيفة التى اعتقد
الجميع أنها ماتت ودفنت . لقد أحسنت صنعا بجعلها صحيفة
مصورة . وإن الرسوم الغريبة التى حليت صفحاتها بها حازت
رضاء سكان المدن والريف على حد سواء ، ان غضب الحديو عظيم
وعليه فإن صحيفتك لاتمكن من عبور مكاتب البريد الحديوية ،
ويمضى يعقوب بن صنوع قاصا علينا الظروف التى أحاطت
بوصول صحيفته الى مصر ، فيذكر أن صديقه القاهرى لم يكن
يعلم سعة حيلته وقدرته على التوسل بشبتي الطرق لادخال
صحفه الى وطنه تحت نظر وسمع البوليس المصرى ، فيقول
« ولما كانت الثمرة المحرمة موضع تهافت الجميع من بدء الحليقة
الى يومنا هذا ، فإنه منذ أن نفيت فى سنة ١٨٧٨ الى اليوم كانت
صحيفتى تدخل سرا الى مصر وتباع بالآلاف . وما أكثر الحيل
التي توسلت بها لتهرب صحيفتى رغم أنف البريد المصرى
الانجليزى » .

ويذكر لنا يعقوب كثيرا من الطرائف المتصلة بارسال صحفه

الى مصر ، ويحكىها في أسلوب بسيط واضح يحسن أن نسمع اليه وحده في وصف هذه الطرائف دون تعليق ، فهي لا تحتاج الى تعليق بما احتوت عليه من تفاصيل .

يقول أبو نظارة « كنت غالبا ماأضع صحفى في مجلات مصورة ، وفي كراسات الموسيقى ، وبين أوراق كتب من حجم الثمن ، وفي مجموعات للرسم . وقد وضعت في الجرائد التي نشرت صورة الحديو توفيق سنة ١٨٧٩ أكثر من ألف نسخة من صحيفتى ، ولم أكتف بارسالها الى المشتركين العديدين ولكن بعثت بها أيضا الى جميع أصدقائى ومعارفى وقد تلقى الحديو نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتى فيها ، وكان غضبه لهذه الجراءة شديدا وخاصة لما وجد أثنى نشرت فى صحيفتى الخطاب الذى أرسله الى يطلب فيه منى العودة الى مصر ويعدنى بأحدى الرتب ، وقد رفضت هذا العرض قائلا : انى أفضل أن أعيش فى المنفى على أن أكون غنيا فى خدمة طاغية . » ثم يستطرد أبو نظارة فى رواية هذه الطرائف فيقول « وفى سنة ١٨٨٥ تمكنت من ادخال أربعة آلاف نسخة من صحيفتى بوضعها فى « مرتبة » سرير ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة الى مصر . ولم يلحظ رجال الجمرك شيئا ، وقد شكرتني تلك السيدة الفقيرة على الجرائد التي تبرعت لها بها ، وقالت انها ربحت من بيعها أكثر من خمسمائة فرنك » .

« وقد قيل لى ان النسخ التي كانت تضبط بين الحين والآخر فى الجمرك ، كان الموظفون يقرأونها أولا ثم يعطونها لأصدقائهم ومعارفهم ، فاذا ما انتهى هؤلاء من قراءتها باعوها الى البساعة (السريحة) بواقع خمسة فرنكات لكل مائة نسخة ، وكان الباعة يوزعونها سرا بثمن مرتفع جدا » .

ويمضى المترجم له فى سرد هذه القصة الممتعة من ألوان الكفاح التي زادت مجنته حدة ، كفاح السعى وراء ارسال صحيفته الى مواطنيه ، فيذكر « أنه لما صفى المسيو أوجستان ، وهو تاجر جرائد فى الاسكندرية ، أعماله وعاد الى فرنسا ، علمت أنه قد ربح ثمانين ألف فرنك من بيع صحيفتى خلال السنوات الست أو السبع التي كان يرسلنى فيها ، بينما كنت أنا لا أحصل على تكاليف صحيفتى الا بشق النفس ، فعينت وطنيا بدلا منه ،

كنت أرسل اليه بانتظام خمسمائة نسخة من كل عدد بواقع خمسة فرنكات للمائة نسخة ، وبعد بضعة أشهر علمت والله الحمد من بعض الخلفاء المنبشرين في كل الوزارات والمصالح أن سعادة أورفرى باشا محافظ الاسكندرية الانجليزى لما اتصل به أن مراسلى كان يستلم فى منزله خمسمائة نسخة من يد شخص مجهول ، نجح فى اغرائه بمنحه خمسمائة فرنك فى الشهر عن الصحف التى كانت تصل اليه منى ، والتى لم تكن تكلفه مائة فرنك . .

« وهكذا كان مراسلى يسلم المحافظ كل ماكنت أرسله اليه فما كان منى ، بدلا من أن أعاقبه بالامتناع عن مراسلته أن أصبحت أرسل اليه ضعف الكمية : خمسمائة نسخة يعطها للمحافظ وخمسمائة ليبيعها ! وقد قبل مراسلى هذا العرض ، وظل المحافظ الذكى خمس سنوات يدفع للشيطان اعانة شهرية قدرها خمسمائة فرنك ! ولم تنقطع الاعانة الا بعد وفاة المتمتع بها ! أما المحافظ فقد أصبح موضع سخرة الجميع ، لأننى قصصت هذه الحادثة المضحكة على كثير من الزملاء الصحفيين ، وقد نشروها معلقين عليها بما يثير الضحك » ١٩

الى هنا وقف يعقوب بن صنوع فى كتابة تاريخه ، فعز علينا أن نتبين فى وضوح يشبه الوضوح الملحوظ فيما سرده من هذه التفاصيل ، مدى المتاعب التى أحاطت بصحيفته فى مصر ، والظروف التى اكتنفته فى سبيل ادخالها الى البلاد بعد ذلك ، على أننا نستطيع أن نتخيل أن هذه المتاعب بقيت تلاحقه لأسباب أخرى غير ضغط الحكومة وتحفظ المصادرة صحفه المختلفة ، فإن مصر - على مر الزمن - تمتعت فى أيام كرومر بشيء من الحرية الصحفية التى أباحت لكثيرين اصدار صحف ممثلة لصحف (أبو نظارة) وتتفوق عليها بحالية الموضوع الذى تعالجه ، وقد أشار يعقوب الى تلك الصحف الهزلية فى مجلته فضلا عن أن النهضة الصحفية المصرية فى عهد عباس الثانى صرفت قراء أبى نظارة عن صحيفته بالقدر الذى دفعتهم الى الاقبال على الصحف المحلية الماثلة ، ويتضح ذلك من صحف يعقوب نفسها ، فقد انصرفت هى أيضا عن علاج المشاكل المصرية بالطريقة القديمة أو على الأقل بالالحاح المأثور عن صاحبها فى تخصيص

كل صفحات مجلاته لشتون مصر وحدها ، فرأيناه يعالج مشاكله
عربية وافريقية أخرى ، كان بعضها يستغرق معظم صفحه
المختلفة ، هذا الى أن ارتقاء عباس الثاني أريكة الخديوية ،
واطلاق حرية الصحافة حسب السياسة الانجليزية المرسومة
التي استغلت الصحف لمهاجمة الخديو الشاب ، كانت هذه
الظروف قيمة بأن تجعل وصول صحيفته الى مصر ميسرة ودون
مضايقة ، وخاصة أن أولى الأمر من الانجليز لم يجدوا فيها عنفا
يجاوز ما اعتادوه من الصحف المصرية المحلية ، وهي أقدر على
رواية الحقائق وأعنف في علاج المسائل السياسية الشائكة .

بقيت مسائل هامة في تاريخ المتاعب التي صادفت يعقوب
ابن صنوع ، هي كيف استطاع أن يصدر صفحه وحده ؟ هل
كان يساعده أحد في كتابتها أو كان يكتبها جميعا ؟ ومن أين
كانت تجيء اليه الاخبار ؟ ومن ذا الذي قام بعمل الرسوم لها ؟
وفي ذلك تحكي الحقائق وتروى الاقاصيص والحكايات .

لقد كان يعقوب بن صنوع يلقي متاعب شاقة في اصدار
صفحه ، وهو يقص علينا بعض ذلك في احدى محاوراته على
لسان (أبى خليل) بقوله « ان الطبع غالى قوى قوى في باريز ،
وأن الرسيم طماع ويأخذ الشيء الفلاني والبوسطة وما أشبهه » .
وقد ردد الشكوى من غلاء الطباعة العربية وتكاليفها في
المنفى في أكثر من موضع من صفحه الكثيرة ، الأمر الذي
ترتب عليه اضطراب مواعيد الصدور ، ففترة تصدر مرة كل
أسبوع وأخرى كل أسبوعين وأحيانا تصدر مرة في الشهر ،
وكان للحالة النفسية الخاصة بالترجم له دخل كبير في اهتمامه
بمواعيد صدورها أو تقاعسه عن ذلك ، وقد وضع لنا هذا
الأمر في نفس (المحاورة) حيث ينذر أبناء وطنه بأعمال اصدار
صحيفته اذا لم يجد صدى لما يكتب فيقول مهددا انه سيكتب
« ثلاثين نمرة تافية انما اذا من هنا لهنالك ماحصلش المراد والله
وحياة أستاذي أبو نظارة معظمه ما أقرأ لهم السلام ، ولا يبقى
على ملام ، وبشرط أنهم يسمعوا النصيحة وما يتنبلوش ويتبعوا
المثل اللي قال اسعي يا عبدي وأنا أسعى معك وان رقدت
ما أنفعك ٠٠ » مع أنه يعلم في سنة ١٨٧٩ أن كثيرين من أجران
الشبان فكروا أكثر من مرة في اصدار صحيفة مماثلة في القاهرة

كلما تأخر عدد من أعداد مجلته ، وفي هذا معنى التقدير له
ولصحيفته .

أما عن تحرير صحفه فلا شك أن القسطنطين الأكبر مما كتب
فيها كان من قلمه اللاذع الساخر ، وخاصة محاوراته والعبارة
التياتيرية ، كما أنه وحده صاحب الإيحاء بجميع ما نشر فيها من
صور ورسوم ، وهو وحده الذي علق على تلك الصور والرسوم ،
غير أن ذلك لا يمنع من ذكر حقيقة هامة ، هي أنه كثيرا ما كتب
أو أشار برسم بعد وصول خطاب من صاحب أو صديق من مصر ،
متضمنا بيانات أو أفكارا أو إيحاء بفكرة أو رأي ، ولا شك أيضا
في أنه نشر أشياء كما هي وردت له من مصر أو أقاليها المختلفة
ومن بيئات وجماعات متباينة .

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن السيد جمال الدين الأفغاني
والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حررا طويلا في صحف يعقوب
ابن صنوع ، سواء في صحيفته التي أصدرها في مصر أو في
صحفه المختلفة التي نشرها في باريس ، ورتب هؤلاء المؤرخون
على ذلك أن المترجم له لم يحتمل وحده تحرير صحيفته ، والواقع
يكذب ذلك كله ، فقد راجعنا مجموعات تلك الصحف نسخة
بعد أخرى ، فلم نجد مقالا واحدا للشيخ محمد عبده ، وحتى في
الفترة التي قضاها الأستاذ الإمام في فرنسا منفيا من بلاده لم
يخط حرفا في صحيفة كاتبنا الكبير ، فقد كان الشيخ منصرفا
إلى تحرير صحيفة (العروة الوثقى) التي كان يصدرها بمعاونة
الأفغاني في باريس سنة ١٨٨٤ ، ولو نشر مقالا في أى صحيفة
من صحف أبي نظارة لمهره وكان ذلك شرفا لها ، فقد كان يعقوب
مؤمنا بقدر الإمام مقرا بفضلته وعلمه بالرغم من الخلافات التي
دبت بينهما في ظروف لاداعي لذكرها هنا .

أما السيد جمال الدين الأفغاني ، فله مع يعقوب بن صنوع
تاريخ آخر ، ذكرنا طرفا منه حين كان المترجم له في مصر ،
يختلف إلى ندوة العالم الكبير مع من كان يختلف إليها من النخبة
المنقاة والصفوة المرتجاة ، وهو الذي أوحى إليه بانشاء صحيفته
وشجعه على ذلك بنشر مقالين فيها جاء ذكرهما في إحدى المحاورات
التي نشرتها (أبو نظارة زرقا) وضمن خطاب وارد من مصر
للمحرر جاء فيه أن تقريرنا وضع للتخديو سجل ما يأتى « يا أفندي

قفشنا بباغ أبو نظارة ووجدنا في جيبه جواب له من خواجته وفيه خطين لجمال الدين الافغانى فبعثنا ندهنا الفيلسوف ووريناها الجواب فقال ان جيمس أعز أحابيه انما حلف أن منذ سفره الى باريس لاكتب له ولا ورد منه كتاب قط ، وهو لاينكر أنه كتب مقالتين في النظارة القديمة » .

واذن فجمال الدين لم يكتب



هدية منى الى الشريف اللطيف

حبيبي الشيخ حمس ابو النظارة

« جمال الدين الحسينى الافغانى »

في صحيفة يعقوب الا مقالتين في عديدين من الاعداد الخمسة عشر التي صدرت في مصر قبل نفيه ، غير أنه نزل باريس ووصله أبو نظارة بالود وخف اليه كما كان يخف اليه في القاهرة ، وقد تمكن من الحصول على تأييد السيد جمال الدين الافغانى الادبى ، فكتب لصحيفته مقالا نشره في صدر أحد أعدادها بعنوان (الشرق والشرقيين) وتوسط الصفحة رسم كامل « للسيد جمال الدين الحسينى الافغانى » وقد استغرق مقال الفيلسوف الشرقي العبد كله

بصفحاته الأربع ، ويبدو أن العلاقات بين الصحفي والفيلسوف لم تكن صافية دائما . وما أكثر ما توترت العلاقات بينهما وسجلت أبو نظارة زرقا التوتر في أكثر من موضع وان سجلت أيضا مدى الاحترام العميق الذي كان يكنه يعقوب لأستاذه وأستاذ الجيل جمال الدين الافغانى .

لقد حرر بعضهم مقالات وطرائف لأبى نظارة ، ووقعوا على ماكتبوا ، غير أن ذلك كان قليلا ونادرا جدا ، ونستطيع أن نجزم أن يعقوب بن صنوع قد كتب وحده صحفه زهاء ثلاثين عاما أو يزيد ، لم يمل أو يكل ، ولم ينشر واحد من الكتاب أكثر من مقال فيما خلا صاحب مجلة النحلة التي كانت تصدر في لندن

فقد وافاها بأكثر من مقال وخاصة في سنة ١٨٨٦ ، هذا الى أن الكاتب حين ينشر من يريده المقالات القليلة النادرة لم يكن ينشر دائما ما يوافق رأيه أو يتفق مع سياسته بل انه سمح بنشر مقالة لا تجرى في فلكه ولا تنسجم مع طابع صحفه .

وقد اعتمد ابن صنوع على دراساته الخاصة ومعلوماته الواسعة في موضوعات السياسة المصرية التي عالجها في مجلاته العديدة ، كما اعتمد على الصحف المصرية الواردة من مصر ، وخاصة جريدتي مصر والاهرام فقد كانت تلك الصحف جداوله الاصيل التي ينقل عنها أخباره وحوادثه ، وكانت تلك الأخبار والحوادث تمكنه من التعليقات الممتعة التي قرأناها له ، فضلا عن أن كثيرين من معاصريه والمعجبين به كانوا يبعثون اليه برسائل خاصة ، هذا الى أن نخبة من أهل الرأي من رجالات البلد كانوا يخفون الى باريس أثناء الصيف ، ويزودون المترجم له بمادة بديعة كان أثرها يظهر واضحا في الاعداد التي كانت تصدر ابان الصيف . كان لصحف أبى نظارة رسام يقوم برسم الصور والاشكال ، وكان له مساعد يكتب صحيفته التي تطبع على الحجر ولا شك أن هذا المساعد قد تغير وتبدل أكثر من مرة لأن خط الصحف كان متفاوتا بين الرداءة والجودة ، وكان من أسوأ الخطوط التي شاهدناها في صحف صنوع خطه نفسه ، فقد كان خطا معقدا تتعذر قراءته أو تقرأ حروفه بعد جهد ويشبهه في التعقيد خط مساعده في السنة الخامسة ومعظم السنة السادسة من أبى نظارة زرقاء ..

وهناك « عموميات » أخرى غلبت على صحفه كلها مهما تعددت أحجامها أو أشكالتها أو أسماؤها ، فهي جميعا تتميز بمحاورات واحدة وإن تغيرت عناوينها وموضوعاتها قليلا ، كما أن هناك أسماء مباحرة أطلقها في صحفه على رجال السياسة المصرية أو الانجليزية ، عسكريين أو مدنيين ، فأبو ريضة هو رياض باشا « مملوك عباس جنتم كان » ونوبار « غوبار » وهكس هو « اخص أو عكس أو هلس » وكليفورد لويد هو « البلاص كليفورد » الى آخر تلك الأسماء التي أجاد في السخرية منها .

رحلة أبي نظارة زرقا

هي صحيفة مستكملة نواحى الفن الصحفي وإن سماها «رحلة
أبى نظارة زرقا الولى من مصر القاهرة • الى باريز الفاخرة •
بقلم جمس سانوا محرر جريدة أبى نظارة زرقه الباهية •
والدة النظارات المصرية » وقد صدر منها ثلاثون عددا ، كل عدد
فى أربع صفحات ، محلى بالرسوم الكاريكاتورية ، ونشر يعقوب
العدد الاول منها فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ أى بعد شهرين
تقريبا من نفيه من مصر ، على أن تصدر مرة فى كل أسبوع ،
وكان اشتراكها « خمسة وعشرين فرنك للثلاثين نمرة » ترسل
للناشر فى باريس بمجرد وصول « أول نمرة » للمشترك أو تدفع
لاى « بنك فرنساوى » أو يبعث المشترك ثمنها عن طريق شراء
« ورقة حوالة من البوسطة أو عن يد حبيبه أبو نظارة بيضا فى
اسكندرية » .

لقد جاءت هذه التفاصيل خلال المحاورة التى نشرت فى العدد
الاول « بين أبى خليل وأبى العيين وأبى الشكر على قهوة
البورصة بالآزبكية فى اليوم السبت المبارك ٢٢ يونية سنة ١٨٧٨ »
وجاء الى أسفل ذلك الكلام حديث آخر أو اعلان ، لعله أول اعلان
فى صحيفة « الرحلة » عن الخمسة عشر عددا التى صدرت فى
مصر وأنها تطبع على ورق جميل بمطبعة حجر بباريس .
ويتضمن العدد الاول محاورة بين شيخ الحارة (أى الخديو
اسماعيل) وأبى نظارة ، وأبى الغلب الفلاح ، تحت رسم يصور
يعقوب بن صنوع بقبعته ونظاراته وعصاه والخديو راكما والفلاح
شامخ الالف ، وقد جاءت فى هذه المحاورة معان شتى يحسن
تسجيلها له فى هذه السطور .

شيخ الحارة - التوبة من ذا التوبة اشفق يا أبو نظارة • على
عمك شيخ الحارة • جريدتك ضربها قاسى أخاف منها على راسى •
دى حطت فى قلبى الرعبه • بأقوالها المخفية الصعبة • اذا رفعت
عنى الجريدة • أرجع لطرايقى الحميمة •

أبو نظارة - انت عمرك ماتتوب • ولو رجموك بالطوب •
 ده انت أمرك عند الجميع معلوم • بقى كيف أشفق عليك يامشوم •
 والله ما ارحمك يامطعم الناس للسمك • ياخيبت يامسوم الرقيق •
 ياقاتل الأمير الصديق (يقصد اسماعيل باشا صديق) •
أبو القلب الفلاح - ماتشفجشربابونظاره • الشفجفهفى الغاير
 ده خسارة • ده جتلنا من الظلم والجور • ونازل علينا زى ماينزل
 السواح عالطور • جبر يلهم • ويمعتنا من ظلمه •

ثم تضمن هذا العدد أيضا محاوره بين «أبي خليل وأبي المينيه
 وأبي الشكر» • وقد استغرقت تلك المحاوره ثلاث صفحات من
 صفحات المجلة الأربع ، وتكاد تكون بقية أعداد «رحلة أبو نظارة
 زرقا» صوره من العدد الأول المذكور الا بعض أعداد تميزت
 ببعض مقالات باللغة العربية كرسالة الشفعاوى وغيرها ،
 وإن كانت مقالات نادرة لأسلوبها العالي الذى لا يتلام مع روح
 الصحيفة الساخرة ، هذا الى أن الصفحة الأولى فى كل عدد
 تحتوى على صوره ترمز الى معنى من المعانى التى تضطرب بها
 الحياة المصرية •

وليس فى رحلة أبى نظارة زرقا اعلانات ، يستعين بها يعقوب
 على أداء واجبه الصحفى ، بل إن كل الاعلانات ، اتصلت بالجرينة
 أو صاحبها معلم اللغات ، والاعلانات المتصلة بالصحيفة تحدث
 عن اشتراكها أو تحريرها ، وقد عثرنا على اعلان طريف ندرجه
 هنا ، وهو يعطى فكرة عن الوسائل التى كان يحصل بها
 يعقوب بن صنوع على كثير من المواد الصالحة للنشر •

قالت رحلة أبى نظارة زرقا تحت عنوان (اعلان) • المرجوم
 حضرات المطلعين على صحيفتنا من اخواننا أهل القطر المصرى
 الكرام وأصحابنا من أهل سورية والعراق والجزاير والهند
 وتونس وسائر البلاد العربية إن من يرغب نشر نيذة مفيدة أو
 نادرة لطيفة بأى معنى كانت فليرسل بها إلينا الى عنواننا المحرر
 بذيله فاننا نبادر بادراجها فى الصحيفة ونتشكر فضل من يكرموا
 علينا بها وإن شاء ذكر اسمه أو اخفاه فله الخيار فى ذلك فاننا
 نصنع كمراده على شرط اظهار ارادته اما بكتم اسمه أو
 باشهاره •

أما عن رسالة «الرحلة» من الناحية النفسية فتتمين

بالتخصص في الحملة على اسماعيل وأدوات حكمه ، وحض
المواطنين على الثورة في وضوح لا لبس فيه ، لم يخل عدد ، بل
لم تخل صفحة من كشف خفايا حكم الحديو ، ما صنعه من قبل
وما يصنعه اليوم ، فهو يحدثنا عن اسماعيل في زيارة المقابر ،
و أنت جاي متخفي مصفر اللون وناشف الريق • تطلب السماح
من قتيلك الصديق • آهو المختونق من قبره قام • ووراه المسمومين
بكاس المدام • وبفنجان القهوة اياه • المعروف بضد ماء الحياة •
كل الامراء دول قبضت عمرهم • ويتمت عيالهم وكشفت
شترهم •••

وبذلك يسجل يعقوب طرق تخلص الحديو من خصومه الامراء
والوزراء ، وهي متعددة الاشكال والالوان ، من خنق الى سم
مذاب في خمر أو قهوة ، وهو يرتكب هذه الجرائم « حتى تموت
معهم أعظم الأسرار » وزاد المحرر قارئه ايضا حاشيا بنشر صورة
بدیعة تفسر ما كتبه وتؤكد ما ذهب اليه ••

ثم يسخر الكاتب سخرية لاذعة من حال الحديو بعد أن تنازل
عن أملاكه لسد الديون ، يسخر في زجل ممتع استغرق أكثر من
نصف صفحة ، ننقل هنا بعض فقراته كعنوان لأزجاله التي
تعبر عن حال صاحبها ، وقد جاء هذا الزجل في « محاوراة بين
أبي خليل وأبي نظارة في شانز يليزه » وفيه يقول :-

ايه دى العبارة المتعوسه صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فى مغروسه دى وقعتى وقعة خرفان

شرم برم حالى غلبان

ما اعرفش ايه من ذا الطالع مقصودهم أبى خالغ
واطلع كندا منفض والس يامحلا لما أصبح هريان

شرم برم حالى غلبان

دول سلطوا المسترفلسن اكمنه مجدع وملسن
لغن خاشى بركات ورسن ماخالايش فى الدرامات

شرم برم حالى غلبان

فجابهولى عمى الشيخ نوبار وعملوه رئيس الكبار
يبحر لى عينه زى النار وأنا قاعد تصادم جريان

شرم برم حالى غلبان

لقد نقلت بعض فقرات
الزجل غير مراعى ترتيبه،
نظرا لأن الفقرات التي
تجاوزت عن نشرها
تضمنت ألفاظا لا يليق أن
تنشر فى مطبوع ويحسن
أن يخلو منها ويبعد عن
استفائها ، غير أن الزجل
فى عمومها يؤرخ بطريقه
خاصة للآزمة المالية التي
اصطنعتها سياسه
اسماعيل وحاشيته حتى
انتهت بانتهيار اقتصاديات
البلاد ، وفى مقدمتها
الشتون المالية الخاصة
باسماعيل نفسه ، الأمر
الذى ترتب عليه رهن
ممتلكاته وكف يده عن
الشتون العامة جميعا ،
ونقل السلطة الى مجلس
النظار على النهج المعروف
فى كتب التاريخ .



نوبار باشا أو غويار !

وقد شغلت الآزمة المالية تفكير يعقوب فى (رحلة أبى نظارة
زرقا) فلا يكاد يمضى عدد دون ذكر لها ، وهو يحكى لنا فى
(محاوره بين أبى خليل وأبى نظارة) عن تعيين المستر ولسن
وزيرا ، وأن كان سماه « فلسن » من الإفلاس ! ويقص ظروف
هذا التعيين فيقول أبو نضارة « بقى المستر فلسن لما قفش
الجندى قفشة جد ودبب له وورطن له باللسان وقاله قدام ياريس
وما أشبه وطلب منه كشف دفاتر وحسابات والدواهى السود
أياها ، فالجندى قال فى نفسه - والجندى يعنى الحديو - أخلص
من رسول جهنم ده ازاي ؟ نعمله ناظر مالية وأعطاء كم مفتاح
انما على حاصل فارغ ونفخه نفخة انكليزية وطبطب عليه وعزمه
عنده انما ماسقاهش الفنجان القهوة اياه لسا ماجاش وقته » .

ويبين يعقوب اشاعات الخديو التي اطلقها بان الأجانب هم
سبب الأزمة المالية وأنه برىء ، وأنهم أفقروه مع من أفقروه من
سائر المصريين ، ولكنه يكذب ادعاءاته على لسان أحد المواطنين ،
وقد جاء ذلك كله تحت عنوان (محاورة بين شيخ الحارة والشيخ
محمد والشيخ منصور والشيخ عبد الرحيم) ننشر هنا طرفا منها :
شيخ الحارة - بقى شوقوا يا أخوانى ، الافرنج هلكوا بدنى
وأخذوا ماورائى وما قدامى وخلونى على الحاصرة وخرّبوا البر
ونهبوا الفلاح .
شيخ منصور - لعنة الله عليهم (ثم يقول فى نفسه) ما حدث
خرّب البر غيرك .

الجزيرة المصرية والعشرين من رحلة إلى نطاها زرقا المشتعلة على ثلاثين فرس ومئة وخمسة
ومئتين قرنك نزل سلفا لمئتينها
شعيرت منيها ٤٥



اما الشطرنج في حسان في شيخ الماء يلعب العادي بلطاني والفرسادي
ويبلغ الشطرنج السادي يجمع في الجراب كالمجلس النواب ويسمى في الجراب
ويجمع في القادسي على دفع أموال الطين والحال بينهم المساكين اجتمع على ذلك لو كان
رجال ما كان يلعب الدجال .

كيف عبت اسماعيل بالمصريين والأجانب على السواء ؟

ثم يمضى الكاتب مبينا أوزار اسماعيل التي ارتكبها حتى
تأزمت الأمور المالية ، وقد فصل ذلك فى عدد آخر تحت عنوان
(لعبة تياترية حصلت فى مدينة زيراب من بلاد الغرب .

وأسماء أشخاص اللعب • رشيد سلطان الكنوز • فانوس
خزندار دولته • فرعون ملك مصر • فلسن ناظر مالية • أعظم
بنكرية وتجار القطر المصري) •

ويتخيل الكاتب اجتماعا لمجلس النواب المصري • ويسجله
تحت عنوان (البارلمنتو المصري) ثم يذكر في محاوره حصلت
« هابين الشيخ عبد العال أبو جهوس عمدة ناحية بيت العجل
والشيخ محمد بلاصى عمدة كوم الشقافة والشيخ عمر أبو عيش
نائب كفر الجيعانين وفلتس أفندى هلس عمدة قل جريس وسعادة
معاور باشا وشسدى رئيس المجلس ومنافق بك وهمى
باش كاتب » مجلس النواب ولعل هذه المحاوره أمتع
محاورات أبى نظارة في رحلته ، فهي صورة بديعة لما كان ينبغي
أن يكون عليه نواب ذلك العصر ، تخيلها الكاتب وأجرأها على
السنة المصايخ ، كما أنها تصور الظلم الفادح في فرض الضرائب ،
والسياسة السيئة التي اتبناها وزير المالية الانجليزى ، ننقل
جزءا منها ، ومن أراد مزيدا في تفاصيلها فليرجع الى المجلة
نفسها •

الرئيس - (يوجه نظره الى الاعضاء وينف ويبرز ويقول)
سعادة ناظر المالية أرسل لنا افادة رسمية باللغة الانجليزية
لاجل الضرائب الميرية لسداد الديون المصرية وتحصيل الاموال
المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين افرنجية ودفع المتأخر من الماهية
والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الخمية يعامل بالقوة الجبرية
وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية وأفندينا قر على هذه
القضية فكلا منكم يبدى رأيه بالحرية للمداولة ولا تخافوا من
شئ بالكلية •

أبو جهوس - ان كانت المادة نفاق فاحنا نقر بالوافق وان
كانت حرية تبدى أفكارنا القليلة •

الرئيس - شوف ياشيخ عبد العال أنا لا أعرف النفاق
ولا المحال وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية • وسلامة
طوية • •

أبو جهوس - المادة ليس حاوجه مداولة ولا كثرة محاولة احنا
قبلنا كل النوایب اللى مرت علينا مع جميع المصاييب وبنا
ماورانا وماقدامنا ولابقاش حاجة أمامنا ده احنا كان عشمنا

من سى فلنسن والجماعة الاوروبايوة أن يخلصونا من العبودية لما سمعنا بأنهم ناس طيبين يكرهوا الظلم المبين فبسنلا متهم مافلحوش ربنا يفتنينا بفرجه العميم ويوفى علينا رجل كريم حلیم فيعتقنا من جور شيخ الحارة اللعين اللى مسخبط وش الحماره طنين وأنا وحياة راسك مافيش في بيتى ولا كيلة غلة ولا جلموسة ولا عجلة فيكفانا ظلم وخسائر والله أعلم بما فى الضماير وما تنطوى عليه السراير . .

الرئيس - وانت قولك ايه يا شيخ محمد ؟

الشيخ محمد - احنا لانعرف مدير مالية ولا ناظر خارجية دول ناس ملاعين يوطنوا بلسانهم الا عوج وهم لابسين بتوع طوال اسمهم برانيط راخين شعورهم زى . . . (١) ويلردعوا نبيد كثير ويتغذوا بلحم الخنزير وأما احنا ناس هواره نعرف طيب في قناية الفرس والحماره وأعرف سعادتك اننا هانقبش زيادة ضرايب ولا كترة مصايب وعاوزين تخفف المربوط ولا تسال عن دبلنيز ولا مريوط وان انفلق شيخ الحارة ماندفع ولا بارة والا ان كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنين وان كان عاوزين النياشين بتوعكم خلوها والفلاحين امي قدامكم كلوها لان بلدنا وحياة راسك بعد ما كانت حايزه كمال اللطافه أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة الله يجازى ابن الحرام .

هذه هي قصة الدين والضرائب ، عرضها المترجم له عرضا بديعا ينم عن فهم لواقع الحال في مصر اذ ذاك ، وعرضها في الفاظ ومعان مصرية خالصة ، وفي سخريه لازعة جرت على السنة المشايخ الذين سماهم باسماء ترمز الى المفارقات العجيبة في البلاد ، فالشيخ « بلاصى » عملة لكوم « الشقافة » ! والشيخ « أبو عيش » نايب كمر « الجيعانين » ! غير أن الكاتب لا يعنى مطلقا السخريه بالأعضاء وان كان قليل الثقة في استماع الحكومة الى آرائهم أو تقديرها لمكانة المجلس ، وفي هذا يقول على لسان - أبو نظارة - « صار فتح البارلنت اللى هو مجلس النواب وتليت فيه مقاتلين طز قش . . واحدة كانها من شيخ

١ - هنا كلمة يعف القلم عن تسجيلها

الحارة والثانية بصفة جواب لها من رئيس المجلس وكلمتين من أحد الأعضاء علموهم له من قبل دخول المجلس أما أغلب الأعضاء هم جدعان أحرار لا يباعوا ولا يشتروا والظاهر أنهم اتفقوا على رأى واحد بالتكلم بغاية الحرية في المجلس مشى زى زمان اللي كانوا دائما يقولوا أى نعم أى نعم رأى سعادة الرئيس فى محله وما أشبهه .

وإذا أحسن أبو نظارة الظن بكثير من أعضاء المجلس فإنه لم يؤمن قط بحكومة الحديو ولا بشجاعة وزرائه ، وهو يصورهم تصويرا يناسب أقدارهم الصحيحة فى « جلسة سرية فى جمعية الطرايطر المشهورة بالضحك على دقون العالم تحت رئاسة السنجق الأكرم الأجل الأفخم عزيز أوغلو القولى أحد أمراء الغز الذى ظلم أهل القطر المصرى فى سنة ١٢٠٣ وهلك سكانه » ويحدثنا عما دار فى هذه الجلسة بعنوان « محاوراة بين عزيز أوغلو رئيس الجمعية وبين أعضاء الشركة وهم داخلى أغا وخارجى أغا وسيفك مليح أغا وأذرعلو أغا وحق نطاحى أغا وجهلى أغا وسهرج محافظى أغا » وعزيز أوغلو هذا هو الحديو اسماعيل ، وأعضاء الشركة هم على التوالى وزير الداخلية ووزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الزراعة ووزير الحفانية .



مجلسى الوزراء أو جمعية الطرايطر المشهورة بالضحك على دقون العالم ١

أما جهلى أغا فيعنى به وزير المعارف ، وهى تورية لطيفة عن وزراء العهد التافهين الذين كانوا أشبه بالطراطر ! وقد أطلق على المحافظ الاسم الأخير المذكور .

واننا حين نراجع تلك المحاورة الطويلة نجد أن المحرر قد أجرى على لسانهم ما يمثلونه من نظارات .

وقد اعتاد أبو نظارة أن يهاجم أدوات الحكم جماعات وأفراد . ويهاجم معهم بعض أعضاء البيت المالكة ، ولم يسقط من حسابه حتى أميرات ذلك البيت ، مثال ذلك ما جاء فى أحد الأعداد من حملة عنيفة على نوبار أو غبار كما يسميه بعنوان « عصابة الانجال . على الوزير الدجال - لعبة تياترية حصلت فى أيام الغز فى اليوم الخامس عشر من شهر محرم سنة ١٢٩٦ أسماء أشخاص اللص . أبو السباع شيخ الحارة . أبو الخير ختام . غبار وزير . توقيف ولى العهد . نحس ناظر جهادية . نحسين ناظر مالية . سنى محونة الوالدة . خيالة هانم . قرابه هانم . على أفندى شاويش خلخال أغا ،

وهكذا أخذ يعقوب بن صنوع يهاجم خصومه من الخديو الى الوزراء وكبار الموظفين ، تارة بالمحاورات وتارة بالأزجال البديعة وإن لم تخل من ألفاظ بذيئة لاتليق فى معناها أو مبناها . ثم نجده بعد ذلك يحاول فى « رحلته » أن يثير الجيش على تلك الحكومة التى حاربها بعنف وقوة ، وقد بدأ منذ العدد العشرين يدعو الى تلك الثورة ، مبينا لضباط الجيش ورؤسائه مدى الظلم الواقع عليهم ، ويسجل لنا هذا فى محاورة طويلة استغرقت ثلاث صفحات ، وهو يعنى فى تلك المحاورة التاريخ للحدث المشهور ، حادث طرد بعض ضباط الجيش والتوقف عن دفع مرتباتهم ، الأمر الذى أثار سخطهم ودفعهم الى التظاهر كما تروى كتب مصر الحديثة ، فنجد فى المنظر الأول وصفا مؤثرا . . .

(فى بيت الجهادى . غلبان بك اميرالى ، حزينة هانم زوجته . جيعانه هانم بنتهم . وعريان بك ابنتهم) !!
غلبان بك - (يسمع دموعه ويقول) والله لو لم يكن محرم عندنا فى الديانة لقتلت نفسى وخلصت من العيشة المنحوسة دى . أمى الهانم داخله وورامها العيال ولا شك انها رايحة

نطلب منى كم قرش تبعت تجيب بهم رغيين عيش وقطعة جينة
والا نموت من الجوع ، وأنا ربنا عالم مافى جيبى خمسة فضة .
هو المدير .

حزينة هانم - (تدخل وفى يدها الاطفال) صباح الخير
ياسيدى .

جيمانة هانم وعريان بك - (يبوسوه وهم يقولوا) نهارك
سعيد يا بابا .

غلبان بك - آه والنبي يا أولادى من يوم ماتولى علينا شيخ
الحارة السعد سابنا ومشى . فبن أياك السعيدة ياسعيد ؟
كانت الجهادية متشرفة ومسرورة مش زى اليوم جيعانه
ومقهورة .

حزينة هانم - والعمل يايبك ؟ قول احنا الاتنين نقدر نصوم
انما العيال دول والله بيخرجوا قلبى كلما يقولوا لى ياماما بدنا
ناكل . اليوم مافطرناش بقى ما احناش رايحين نتفتى .

غلبان بك - لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم . ياليتنى
كنت نجار أو حمال أو زبال كنت على كل حال أقدر على
قوت عيالى ولا أشوف بيتى فى الفقر ده فصنقى من قال فيه
الفقر كنز البلاء . الفقر هو الموت الأحمر . ما ضرب العباد
بسوط أوجع من الفقر . الفقر فى الأذن وقر ، وفى السكبد
عقر ، وفى القلب نقر ، وفى الجوف بقر . واحنا يا أولاد مصر
صباحنا على الحصيرة ولا نحن واجدين لقمة نسد بها جوعنا
وساكتين على غلبنا . ياخى خيلنا نفور والله نستاهل أكثر من
كده وفرعون قليل ظلمه فينا .

وتمضى المناظر ، منظرنا بعد منظر تحدثنا عن سخط غلبان بك
وجراته على الحديو حين قابله محتجا على حاله ، وجوع عياله
وما انتهى اليه أمره من تناول القهوة المسمومة فى قصر اسماعيل
وموته ، وكان أنكى مافى القصة تصوير المؤلف لختامها حين أمر
أتباع الحديو بانزال تابوت الميت من على أكتاف زملائه حتى يدفع
الضرائب المستحقة عليه ! ولولا خواجه نصرانى ، تبرع
بالمطلوب لكان ختام القصة أبشع ما عرف فى القصص
والحكايات ! . . .

ثم يمضى أبو نظارة فى مدح الضباط الذين تجمهروا عند

رئيس النظار ، ويروى ما حدث تحت عنوان (محاوره ما بين أبو الخير وأبو اللطف الجهادي) وهي في الحق رواية من أصبق الروايات عن ذلك الحادث التاريخي الذي اختلف في تفاصيله كثير من المؤرخين ، يصف ذلك بقوله « فاجتمعنا وتحالفنا بلسان واحد ، وحررنا عرضحال وطلبنا صرف الماهية والراحة العمومية وتوجهنا به الى أندال الرجال ، وهيئة الدجال مجلس النواب ، وأخذنا أعضائه ، وتوجهنا للمالية ، فتصادفنا مع الفاير غبار فصحننا وقلنا له معنا عرضحال فقال ، سكرتجت أدبيس هر فلار ، وأمر العربي بضربنا بالكرباج ، فالتزمنا أن نحفظ شرف الجهادية وأنزلناه من العربية ! وأرجعناه الى المالية بالقوة الجبرية ، ثم ظهر فلسن فافهمناه بالرجوع فامتثل ورجع بدون اهانة ، ثم الفرقة المخصوصة أحضرت على مبارك بمزيد التحقير وكلنا شاكين السلاح ومتوكلين على الفتاح ، وكانت ساعة عظيمة ، ثم حضر الفرعون الأكبر ومعه قدر ألف عسكري فأمرهم بضربنا بالرصاص فاطلقوا بنادقهم الأرياح ولم يصيبنا شيء . . . »

كان يعقوب بن صنوع يريد من هذه الفصول الكثيرة التي كتبها ضد الخديو اسماعيل أن يتجه بها قليلا الى الجيش . وكثيرا الى بقية المواطنين ، ولقد كان يبصر مواطنيه بظلم الخديو ميينا لهم أنه حاكم يجب أن يعرف حقوق مواطنيه عليه ، وأن الدنيا قد تغيرت « دلوقت راحت السكرة واستيقظ الفلاح وجاءت له الفكرة ، ومن مدة كم يوم فاق وصحي من النوم ، وفهم أن رب العالمين خلق عباده حريين ، وجعل الملوك في كل مكان على الرعايا كالرعيان ، يدلوهم في طريق الفضيلة ويعلموهم العلوم والفنون الجميلة ، مش زى شيخ حارتنا الظالم اللي ما يقدرش يشوف في بلاده رجل عالم ، الا وحالا بيعيه وفي بحر النيل يرميه ، تبقى عياله عليه مغمومه وأسماء البحر تعمل عليه عزومه ، انت نسيت الصديق وما جرائه وذل حال حريماته وعيساله ، وكم من أولاد حارتنا ياناس نعل خاشهم وأسقامهم دا الكاس ، احنا أندال قاعدين ساكتين ولا وأمر الظالم ممثلين »

وبعد فان يعقوب بن صنوع قد أمتعنا في (رحلة أبي نظارة زرقا) بما قدمه لنا من محاورات وفصول تمثيلية تتفق وذوقه وتجري مع سليقته وتوائم طبيعة الممثل فيه ، وقد ضمن ذلك

كله كثيرا من التاريخ وأقوال العامة وحكمهم في أسلوب مصرى عامى تخللته أحيانا بعض الفاظ تركية وأجنبية وشامية ، ولكي نستوفى قصة هذه الرحلة غايتها يحسن أن نؤكد للقارىء بأن يعقوبا لم يكن كاتباً للغة العامية يجيد عبارتها ويحسن صياغتها وحدها بل كان الى جانب ذلك أدبياً فى اللغة العربية الأصيلة ، نشر بها فى (الرحلة) فصولا بديعة دلت على علمه بأصول الدين والدنيا . . .

استمع اليه يقول « الحلم أجل من العقل لأن الله تعالى وصف نفسه به » ثم يتمثل بأقوال أئمة الدين فى هذا الموضوع فيقول « ما بعث الله نبيا الى قوم إلا بعثه وأمره بالحلم » ، أو كما قال « ما أضيف شئ الى شئ أحسن من علم الى حلم »

ومن موضوعاته الأدبية « النصيحة اللؤلؤية للمسامح الحديوية » ثم « رسالة الشفعاوى » وقد نشرت فى أكثر من عدد وهى فى أسلوب عال يختلف كل الاختلاف مع طابع الصحيفة وما تضمنته أعدادها الكثارة ، وتتميز بعمق الفكرة ، وسلامة العبارة ، وانتقاء الالفاظ ، استمع اليه يحدثنا فيها عن ظلم الحاكم اسماعيل وسيرته السيئة « وكفاك أنه لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكرا » ولا يوجد فى وقت الصلاة إلا جنبا . وفى رمضان الا مفطرا . نعم يصوم ولكن عن الخيرات . ويستقبل الفجور متلطخا بنجاسة الفحشاء . فاجر يقتات بالكبائر . ويتفكه بالصغائر . ويروح من مولاه شاكيا ولشيطانه شاكرا ، فكانه عاهد ابليس فلم يخن له عهدا ، ووعد أنه يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعدا . ان ذكر الاتقياء والاخيار . قال احضروا الى الحكيم وان سمع بالاشقياء الاشرار . قال غنى بذكرهم يانديم . فرعون بالنسبة اليه حاكم عادل . وأبو جهل ان قيس به امام فاضل . وليزيد لو مائله لما اضطربت أقوالهم فى جواز اللعنة عليه . والحجاج لو شاكله لما اختلفوا فى نسبة الكفر اليه . ولكنهم ليسوا أكفأ له . فلو عادوا لاتخذوه امامهم . وسلموه زمامهم . . فانه هتك أستار ما هتكوها . وانتهك حرمت ما انتهكوها . وظلم حتى أهل القبور . وجار حتى على السمك فى البحور . فلو مسخه الله ذئبا لفتك بجميع الحيوان . أو حية لما بقى على وجه الأرض انسان . وحسبك أنه يجب

المظالم حبه لأولاده وأحبائه اللثام . ويبغض المراحل ببغضه
لأعدائه وأعدائه الكرام . . .
هذه هي سيرة (رحلة أبي نظارة زرقا الولي . .) قد عرضنا
لها جملة وتفصيلا ، وبيننا مواضع القوة والضعف فيها ، وهي
بالرغم من كل الهنات التي لاحظناها في انشائها وأخطائها
الاملائية والطبعية تعتبر في ذمة مؤرخ الصحافة عملا جليل
القدر ، وخاصة إذا راعينا أن محررها قد أعد لها العدة في ظروف
مادية قاسية وفي عجلة ودون تأن ، فإنه لم يستكمل شهرين
في المنفى الا وكان العدد الأول من (الرحلة) قد ظهر مطبوعا
على الحجر برسمة الجميل ، وهذا نشاط صحفي كان ينبغي أن
تظهر آثاره على مهل حتى يجيء كاملا مستوفيا كل أسباب
النجاح . . .

أبو نظارة زرقا

أبو نظارة زرقا .. « صحيفة أسبوعية أدبية علمية . بها
محاويرات طريفة . ونواذر لطيفة . ومواعظ مفيدة . ومقالات
فريدة . وقصايد عجيبة . وأدوار غريبة . مديرها ومحررها
الأستاذ جمس سانووا المصرى مؤسس التيارات العربية فى
الديار المصرية . قيمة الاشتراك عن ٣٠ نمرة ٢٥ فرنك » .
يقرا الكتاب من عنوانه ! أو تقرأ الصحيفة من أهدافها ، وقد
أعلنت « أبو نظارة زرقا » عن أهدافها فى تلك البيانات التى
سجلناها ، وقد حققتها جميعا وجاءت فيها بالمعجب والمطرب ،
وعاونها على أداء رسالتها هذا الأداء الحسن الظرف الدقيق
الذى كانت تمر فيه مصر اذ ذاك ، فقد اشتدت أزمة اسماعيل
وتم عزله ، وتولى توفيق وتلاعب السلطان بفرمان تعيينه ، وعين
رياض باشا ناظرا للنظارة فهاج الأحرار وصرعت صحفهم الواحدة
تلو الأخرى ، وهذه كلها مادة يستطيع أن يجول فيها صنوع
ويصول ، ويؤرخها على طريقته المعروفة .

لقد كان يعقوب يعرض على مواطنيه مآسى الأزمة المالية عددا
بعد عدد ، وكان ناقدا مر النقد ، قاسيا أشد القسوة على الحكومة
والحدىو والأجانب وخاصة الانجليز ، غير أنه لم يكن يريد ،
مهما تكن الأسباب ، أن ينتهز أحد فرصة الارتباك المالى فيحتل
البلاد ، أو تصبح البلاد فى يد حكومة أجنبية تدبر أمرها ، وهو
يفضل « الموت ولا العيشة تحت تسلط حكومة أجنبية » غير
أن ذلك لا يمنع المترجم له من الترحيب بعزل اسماعيل وتعيين
حليم ، وقد أجرى هذه الأمتية على لسان « أبى العينين » حين
قال لأبى الفسكر « ده شيخ التمن (يقصد السلطان) كتب
لدول أوروبا أنه رايح يرفط شيخ الحارة ويولى عمه بداله وهم
جاوبوه وقالوا له الحارة حارتك اعمل فيها كما تشاء » .

ثم يهاجم أبو نظارة الحدىو اسماعيل وكرسى الحكم يهتز من
تحتة اهتزازا عنيفا ، ولا يرى هناك أملا فى مستقبل مصر
وحاضرها على يديه ، بالرغم من تعيينه لشريف باشا ناظرا

للنظار ، وهو ممثل الديمقراطية الهادئة والفئة الرشيدة أيام اسماعيل . وفي ذلك يقول في رسالة « من أبى نظارة معظمة فى مصر الى أبى نظارة زرقا بباريز » .

« ولا تظن الوزارة الجديدة يطيل عمرها بل تستعفى عن قريب لأن مازال الجندى يلعب بديله كسوابقه ، وأوامره يصير اجراها بدون علم أبو شرف وبابا راغب ، والظلم والجور على حاله ، ولا يطلع من يدهم شيء معه ، وصدق من قال لا تفرحوا لمن يروح لما تشوفوا من ييجي . شوف يا عزيزى ، اذا رب العالمين عين سيدنا موسى ناظر ماله وسيدنا عيسى ناظر خارجية وسيدنا محمد ناظر جهادية كن ميقن أن الفرعون يعمل شغله بسحره ويضحك عليهم ، وكلما مسكوه بسرقة وقالوا له جزاء الحرامى قطع يده يقول لهم والكاطمين الغيظ والعاقبين عن الناس توبة من دى التوبة ، فلذلك أقول وهذا رأى جميع أبناء مصر أن اذا ما أسعفناش مولانا الا عظم بحلمه تحصل أشياء عمرها ما حصلت لأن العالم هنا يشتت وقطعت الرجا والدنيا صبحت سودا امام عيونهم ولا أحد يشفق عليهم » .

ثم يصور لنا نفسية اسماعيل على لسان اسماعيل فى تلك الظروف التى كانت تمر به ، انه فى فزع وخوف بالرغم من أنه



سيد البلاد . . انه يؤرخ لنا عن الحاكم المستبد الذى عجزت صحيفة معاصرة فى مصر عن أن ترسم له هذه الصورة البديعة ، وما كان فى وسع جريدة أو مجلة فى البلاد أن تقص على قرائهم ظروف اسماعيل المضطربة ، ولكن صنوعا يبدع فى الوصف ويمتدح فى هذا الخيال الذى جاء بعنوان « شيخ الحسارة » وهى

« لعبة تياترية حصلت فى أيام الخديو توفيق أو توفيق كما يسميه الفراغنة ، وأشخاص اللعب هم

أبو نظارة . .

شيخ الحارة ومشخلعلو هانم وششمعدان اغا حريم
وتوقيف أفندي ونحس ونحسين ورياض وأبو الحلم ومجدد
الجهادي وجدة ابن البلد وعمر شهامة فلاح ،
ولسنا نريد أن نطيل في اقتطاف بعض ماجاء في اللعبة
التياترية ، وإن كانت جديرة بنقلها جميعا ، غير أننا سنقتصر
على اسماعيل وهو في حجرة نومه لم يمسسه الكرى ، ساهد
حتى مطلع الفجر ، يحدث نفسه حديثا ممتعا فيه صورة بديعة
لشخصية الحديو وطرائق نظره الى الحياة ورأيه في وطنه
ومواطنيه ..

يقول اسماعيل « راحت عليك يا أبو السباع آه .. الله يلعن
اليوم اللي فيه توليت شيخ حارة ، ده كان يوم نحس وأنا كان
مالى ومال الشبكة دى اللي زى الطين ، المكتوب على الجبين تراه
العيون ، نعمل ايه فى طمع الدنيا ؟ أدبنى صبحت أشقى
مخلوقات الله والخوف قاتلنى ، هاتنين عسكرى ومدلعين حول
سرايتى ويرضى مرعوب ، وكل ما أسمع حد قابل على أنفزع
وقلبى يطب وأقول فى نفسى أهم ضباط الجهادية وتلامذة
المدارس وأولاد البلد والفلاحين جاينين ينتقموا منى ويقبضوا
روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللي ليتهم
بغاية التعب والمشقة ويولوا عمى العديم شيخ حارة عواضى .
بلا هلس .. ده أنا سيدهم فى المكر ولا أخاف من ملك الشياطين
أما الجماعة مستحلفين لى بقطعة علقه صنعه . ما يطلعش من
يدهم حاجة ، البصاصين كثير . ومأمور الضبطية جدد على
حبايب أصدقاء بين الضباط والتلامذة ويعرفونى بكل اللي
يخصل يومى ، أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جرنال
تانى وقال فى حب الوطن . أهو زى الكلب اللي بينبح خليه
يعوى .. آيا اسماعيل .. انت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده
أتما قلبك بيرجف وضمبرك فى قلق ، أهو الليل بيقتو بطوله
وعينك مابتدوق النوم ، أدبنى سامع تشخير الأغوات ،
يا بختهم دول مبسوطين ولا هم عارفين الدنيا بتعمل ايه ، والناس
اللى ماتقهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكنهم
محرومين من لذات الدنيا ، آه يا مغفلين والله ما حد محروم غيرى
أنا ، لكونى ما يستلذ لا يأكل ولا يشرب من خوفى أن خدامينى

يسمونى ، ولما أخرج من البيت كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى أن يوم القيامة جاء وأنظر يمين وشمال ومن لحظة للحظة يتراعى لى أن العالم رايحه تهيم على عربيتى وتهلكنى . ياخى لا . والله انى مجنون . هو أنا فى أوروبا ؟ احنا فى مصر وأولاد مصر يخافوا من خيالهم ، دول ناس ، ذرطه من غير مؤاخنة تطيرهم ، والا ما كنتش خلصت من أياديهم يوم قيامة الضباط ، أدبنى بعمل بكيفى ولا حد قادر على . غبار طلعت عليه ضامه وشقلبته رغمنا عن أنف مشايخ حوارى الافرنج ، وفلسن وبلانور دسيتهم فى جيوبى ، وباذن الله انتصر على شيخ الثمن وأحطه هو ووزيره فى الجراب . أما اللى غايظنى أنا ، هو أبو الحلم لأن كل الشعب هنا بيعجبه ، والا ماكانوش يكتبوا لشيخ الثمن ولأعظم ملوك الافرنج ويشكروا من جورى وظلمى ويقولوا عاوزين لهم شيخ حارة كريم حلیم . الله ينعلكم يا أهل مصر ، يعنى أنا عملت لكم ايه ؟ أنا شاريتكم من عبد العزيز ، ودايما السيد يفعل فى عبده كما يشاء ، فلوسكم دى فلوسى وانتم ملزومين تخدمونى بالسفرة ، والا الفرق بينى وبينكم ايه ؟ أما الفلاحين بيعوتوا من الجوع . ان شا الله مافضلوا . الفلاح ماهوش بنى آدم . الفلاح بهيم وربنا خالقه للتعب زى التور ، والتور أنفع منه لأنه بيعطينى لحمه آكله ، أما الفلاح نتن وهو حى ، ويعملوته القبر فيه خسارة ، لو كان هنا هذا الخنزير أبو نضارة . كان يقول لى القبر خسارة فيك يافرعون لكونك بتظلم خلق الله ، انما أبو نضارة نفينا من حارتنا وأهو قاعد بيعشحت فى بلاد فرنسا . آمى الشمس طالعة وأنا لسه ما نمتش . أه من عيشتى ! ما أمرها ! والعمل ايه ؟ الشيطان يدبرنى . . .

لقد اكتفيتا بنحو نهر من الصفحات الثلاث التى نشرها أبو نظارة ليصور فيها نفسية الحديد اسماعيل قبيل عزله بشهور قليلة ، وقد تعرض فيها الكاتب لعنبت الامر بشئون الحكم ونهمه فى جمع المال ، ثم شرح حياة القصر كأنه واحد من أقرب المقربين الى الحديد ، فعرض أمرار بيت اسماعيل وفضائحه ، كما قال رأيته فى « أولاد مصر » على لسان اسماعيل فقد كانوا حقا يخافون خيالهم والا لثاروا على الطاغية وثلوا

عرشه ، ولكنهم استكانوا حتى تدخل الأجانب فعزلوه بعد نحو ثلاثة أشهر ، ثم شرح رأى البيت المالك فى الفلاحين المصريين ، وهو رأى توارثه الخلف منهم عن السلف .
 لقد شرح أبو نظارة لقرائه نفسية اسماعيل فى عدة فصول من « لعبته التياتورية » وهو لا يريد أن يختم هذه « اللعبة » دون أن يبين لهم طريق التخلص من الظالم ، لعل مادار بذهنه يعجبهم ، أو لعل الشجاعة تواتيهم فينهضون لانقاذ بلادهم بطرد اسماعيل ، وقد رسم لهم ذلك فى المنظرين ، الرابع والخامس ، نشرهما هنا ، فقد كان أكرم ، للمصريين لو استطاعوا تمثيل هذين الفصلين على الصورة التى بينها الكاتب الأديب .

(المنظر الرابع فى شارع عبيدين • شيخ الحارة وتوقيف ونحس ونحسين ورياض حاملين أكياس على أكتافهم وأوراق تحت باطنهم ووراهم ستة قواصة ثم مشايخ الأزهر) •
 رياض - اتلحلحوا يا جماعة مانتوش سامعين الزعيق من بعيد (الجميع يرمحوا) •

مشايخ الأزهر - (على بعد) ربنا كريم حليم يا بو نضاره الله ينصرنا على شيخ الحارة •
 توقيف - حتى المشايخ ضدنا ، ده أنا يوم الدوسة عملت لهم مقام •

شيخ الحارة - جيعانين نعطى لهم لقمة جراية يسكتوا •
 (المنظر الخامس • مشايخ الأزهر والضباط والتلامذة والودشجية (المرفوتين ومجدع وحقق وعمر شلهمة وأبو الحرق) •
 مجدع - (يسلم سيفه ويقول لشيخ الحارة) طالع ترمع على قبن يافرعون ؟

حقق - الأكياس دى والأوراق ثقيلة عليكم (ياخذها منهم ويعطيها للتلامذة والضباط) •

عمر شهامة - آه ياغاير ياما عملت فينا •
 أبو الحرق - (يقول لشيخ الحارة) اقرأ هذا الفرمان من مولانا السلطان •

أبو الحلم - أنا نصحتك يا ابن الأخ من مدة سنة بجوابي فلو كنت سمعت كلامى كان البر اتصلح وانت فضلت عليه

شيخ حارة ، انما انت خربت و هتكت اسم مصر و أهلها .
 حلق - لما توليت يا فرعون البر ما كانش مديون ، و اليوم
 عليه مائة مليون جنيه ، المبالغ دى راحت فين ؟
 مشايخ الأزهر - بنى بها سرايات و صرفها فى الفسق
 و الفساد .

عمر شهامة - و عوض ما يساعد الفلاح و يصلح أحوال الزراعة
 اللى هى سعادة أهالى القطر ، فرعون بسلامته نهينا و باع
 أطيافنا و مواشينا و موتنا من الجوع .
 مشايخ الأزهر - فرعون كافر و آخرته الجحيم ربنا كريم
 حلیم .

أبو الخير - (الى الضباط) تسليمكم شيخ الحارة و أولاده
 و وزيره ، اذهبوا بهم الى الاسكندرية ، و انت يا مجدع باشا
 سلمهم الى قبطان مركبتنا العثمانية و هو يجرى اللازم (الضباط
 و حلق يفعلوا ذلك و يضربوا القواصة اللى يتجاسروا
 يعارضوهم) .

شيخ الحارة - (يزق و يقول) الحارة خارتى و أنا شيخها
 و انتم مالكم و مالى ؟
 مشايخ الأزهر - جرحوه . ما تسمعوش كلامه .

(الجميع يفتوا)

اتت فىن يا بو نضاره	تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحارة	وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم	افرحسوا يا أهل النيل
الله ينصر سى حلينم	و يصاقب اسماعيل

و يعود أبو نظارة فيستيقظ من هذا الحلم الذى تمنا للمصريين
 و تجاهيه الحقيقة المرة بأنهم أضعف من أن يسلكوا تلك الطريق ،
 و أن الخطوة تعوزهم لبلوغ هذا الامل فيقول على لسان أبى خليل
 و أهل مصر كانت شجاعة فى أيام الفراغة ، أما اليوم ما يخرجهش
 من يدهم يفعلوا شئ زى ده لأنهم أخذوا على التنيلة .

وهكذا ينتهز يعقوب بن
صنوع هذا القلق الذي
أصاب الخديو اسماعيل
وهذه الاضطرابات التي
أحاطت بعرشه ،
فيجلى في الحملة عليه وعلى
الفساد الذي أشاعه في
البلاد ، وأساء به الى الدين
ايضا كتصرفات الخديو في
أموال الأوقاف الخيرية
التي كان ينبغي أن يربحها
بالزكاة والشرف ، كلما
يخرب منزل أو حانوت
بدل تعميره جاري مبيع
والعقار والأطيان الموقوفة
للجوامع وغيره التي انتهكت
في الشوارع ويوزعدهم
عن ما يتعين أخذهم الفرعون ،
فهذا هو السبب الوحيد
لخراب الجوامع وتعطيل
الشعائر الإسلامية . . .



رياض أو أبو ريفة أو الوزير المشغلق

ثم عزل اسماعيل العدو اللدود ليعقوب بن صنوع ، ويتولى
الأريكة الخديوية ابنه توفيق ، ولم يكن في ذلك تحقيق للرغبة
الجامحة في قلب يعقوب ، فهذا بعض النصر وليس النصر كله ،
انه كان يريد أن ينفي اسماعيل من مصر ويتولى مكانه عمه
الأمير حليم ، وهو لسانه في مصر أو في خارج مصر ، بيد أن
عزل اسماعيل لم يقض في نظره على المفسد ، إذ احتفظ العهد
الجديد بأدوات الحكم القديمة ، وهي أدوات فاسدة يعلن عنها
عن طريق خطاب تلقاه من الجيزة وفيه يقول صاحبه « ربنا
يخلصنا على خير من وكيلنا أحمد عصمت لأنه جاب لمدينيتنا
العلماء ده كان في المدة الماضية محسوب خلخال أغا شمعدان

الست الكبيرة . والآن محسوب كمال أفندى ، ومن حيث أنه لم يكتفى بالتهب والسلب السابق ، فهو دلوقت يعمل شغله في أكل أموال العالم بالباطل ، وبينظم وبيهندس في مزروعاته ، وفرعون الصغير ما استعناش يقرأ الرايض اللي قدمناها له ، بقى شوف لنا طريقة انت يابو تضاره والسلام . انت ربنا بيقبل منك ، ولما دعيت على الأب سمع منك وريحنا منه ، فبالله ياوليد ادعى لنا على ابنه وخلصنا من شبكتة اللي زى الزفت . عسى الحليم يحلم بحلمه ...»

ولم يعدم بالطبع ، اسماعيل قبل خلعه وتوفيق بعد تعيينه ، من السنة تهاجم الأمير حليما الذي تعلق به كثير من أحرار المصريين ، وكانت تلك الالسنه تهاجمه بشدة في الصحف الأوروبية ، وخاصة في الصحف الانجليزية ، وقد استطاع دعاة الحديو أن يؤثروا في تلك الصحف ، فخرجت بمقالات عنيفة صورت بها حليما نكرة لاعزوة له في مصر ، وقد رد أبو نظارة على تلك الصحف بمقالات ممتعة ، سل فيها الحق من الباطل ، وأشار الى ذلك كله في أكثر من موضع في صفحته الكثار .

، وليس يعني هذا أن المترجم له كان يكره أن تستقر أمور مصر ويسودها العدل على يد توفيق ، وأنه كان يرحب بالأمير حليم أميرا عليها ولو فسد الحال وساء المال ... انه مواطن شريف يؤثر حليما بالكلمة الطيبة لأنه نفي من مصر وحورب في رزقه عندما أوصى ابن أخيه اسماعيل بأن يخفف نهمة ويهذب من سلوكه ، فاستحق عند الأحرار المكانة المرموقة ، ولقد كان يعقوب يتمنى أن يجد في السياسة الجديدة في عهد توفيق ما يصرفه عن خصومته ، وهو ينشر مقالا جاءه من مواطن مصري فيه بعض الثناء على توفيق وفيه رجاء لمصر في العهد الجديد ، فإذا سئل في (المحاورة) عما إذا كان من سياسته نشر مثل هذا المديح رد على سائله قائلا « معلوم لأن النضارة جريئة وطنية ماهش لا اسماعيلية ولا توفيقية ولا حليمية ، فعلشان كده لازم ندرج فيها كل ما يخص الوطن » .

ولكن أبا « خليل » يعترض على ذلك بأن الخطاب الذي سينشره - وقد نشره فعلا - فيه مدح شديد ، وهل من العدل أن ينشر مثل هذا المديح في شخص لا يستحقه فيجيبه ابن صنوع

وفي اجابته تظهر وطنيته السلمية قائلا « ياريت كان يستاهل المدح ده كنا نفرح ، لأن نحن غاية مثانا صلاح البر ، انما يظهر من الرسالة الواردة لنا من جمعية محبين الحرية أن الاحوال برضاها على ماكانت في عهد فرعون وأذرت » .

ويتأخر فرمان التولية ، ويعرض أبو نظارة في صحيفته لهذا ولغيره من الثنئون ، ويذكر أن أمور البلاد لاتزال في يد اسماعيل يقضى فيها من بعيد بأسوأما تقضى به الامور والاحكام ، وأن المصريين جديرون بهذا الذل لأنهم ارتضوه وقبلوه ومكنوا له ، فإذا عاب أحدهم في « المحاورة المنشورة » على المصريين بأنه كان يجب عليهم أن يفزعوا الى دول أوروبا طالبين تعيين من يرضاه المواطنون ، أجابهم ابن صنوع على لسان « الخطيب » بقوله « الكلام ده خليه لأهل أوروبا اللي حكامهم تحسب لهم حساب ، أما احنا حكامنا يضربونا ويأخذوا كرايدهم ، أدحنا شفتنا عزل الأب وتولية الابن ولا تحركناش ، ياريت بس كدا الا كمان عملنا زينة ، واللى ماكنش راضى يعلق على بابيه قنديل كانت الكومسيون تعلق على خدوده اقلام » .

وإذا أشار أحد أعضاء المحاورة بالفزع الى السلطان ليعزل الابن كما عزل الأب قال يعقوب على لسان الرئيس « السلطان ما بقت لوش سلطة على مصر ، والربط فى يد دول أوروبا ودول أوروبا وضعت الولد مؤقتا ، وبعدكم شهر اذا شافت انه ماهوش فالح حالا تشقلبه ، فنحن نقدر نكتب لفرنسا وانكلترا ونعرفهم أن الحاكم اللي انتخبوه لنا أذرت من أبوه ، وأنه يكره الناس المدلين ، ولنلمس منهم بأن يخلونا نولى اللي يمجبننا ، لأن اذا استمرت الاحوال على ماهى اليوم . عمرها مصر ما تقم راسها ، أهم بدوا يوقفوا صرف الماهيات ، ومن يعرف رايح يجري ايه فى دفع الكوبون » .

وإذا تبين يعقوب بن صنوع أن الأمل ضعيف فى القضاء على توفيق كما قضى على اسماعيل ، أخذ على عاتقه كشف نوايا الحاكم الجديد ، وأساليب التهريج التى كان يتبعها ، والتى اتبعها من قبله أبوه ، واتبعها ، من بعده غيره من الحديويين والسلطين والملوك ، ومن ذلك بيان العبت الذى كان يرتكبه توفيق فى زيارات الجوامع والصلاة فيها ، فيذكر فى احلى

المحاورات أن رياضاً طلب أجازة يومين ، فلم يوافق توفيق ورد عليه قائلاً : « انت بدك تخلى الشمطلى يطلو وأنا أفضل لوحدي هنا وأقبل زياراتي وزيارتك ، والحال أن وراى أروح الجامع يومى أصلى ، لأن بابا قال لى فى تلغرافه الأخير ، ادعى خوف الله وروح مرارا الجوامع ، لأن ده شىء يعجب الرعاية ، وأنت يا بابا رياض تعرف أنى ما أصدقش فى شىء ، وانى بزعل لما بروح فى المحلات دى ، لأن أبو نضارة قال ان ربنا مايقبلشى دعاء الظالم » .

وليس هناك أبلغ من هذه السخرية ، انه يسخر بذلك من الحديو الذى يتزلف الى الله كذباً ، والذى يختلف الى بيوته الطاهرة من غير عقيدة ولا ايمان فى قلبه ، وهو يعرض ذلك كله محملاً رياض باشا مغبة تلك الاعمال جميعاً ، جلت أوهانت والخصومة بين ابن صنوع وبين رياض قديمة متجددة ، وهو يذكر عنه أنه محاب لاقاربه وأنسيائه يتخطى فى الوظائف العامة أبناء السادة والاكفاء ، فيجرب على لسان (التلميذ نسيم) رايه هذا فيقول « هكذا والا يلاش ، واحنا اذا كنا ماناخذش حقنا قهرا عن شيخ الحارة وملاعينه مبن يفكر فينا أو يخدمنا ، أهو رياض كمثل ماخدم البيكاوات قرايه محمود وطه وفريد والأعمى وعثمان وأحمد الوزان ، أهو الآن جعل زوج أخته الاغيش وكيل مديرية القليوبية والآخر وكيل المنوفية ومصطفى البغدادى صهره ابن سودانية ناظر قلم دعاوى بالضابطية ، وباقي قرايه ومحاسبيه جارى توظيفهم بماهيات ووظائف عالية ، وأولاد الذوات وغيرهم من ذوي الشرف والاستعداد لم أحد يسأل عنهم » .

لقد لقي رياض باشا من قلم ابن صنوع مالم يلقه وزير مصرى آخر ، وهو ذائب على تسجيل مواقفه المزربة فى شئون الحكم فى عهد اسماعيل وولده توفيق ، ومن الطرائف التى صورها لنا ماحدث فى مجلس النواب بين رياض وبين الأعضاء حين أراد الوزير فض المجلس ، وهذه الرواية التى رواها أبو نظارة هي أدق وأصدق ما روته صحيفة أو كتاب فى هذه الباب ، مما يحسن معه نشرها فى هذه السطور ، انها محاوراة ايضاً بين « أبى خليل وأبى نظارة » .

أبو خليل - انت أوعدتنا فى آخر جورنا لك بأنك تدرج مقالات

المويلحي والعمار ومسح أبو شرف وبابا راغب ، هات من
تحايك هات .

أبو نظارة - على العين
والراس ياسيد الناس ،
لما حضر رياض الى مجلس
النواب وطلب انفضاضه
أجابته محمود بك العطار -
اسمع يا أبو خليل دا الكلام
الموزون - ياسعادة الباشا
كيف يصير انفضاض
المجلس بدون أن يعرض
عليه شيء من اجراءات
مجلس الوزراء وبدون أن
يأتي أو أن لعطلة ؟ هو ده
مكتب مسخرة فتحه وقفله
بيدكم ؟

أبو خليل - ماشاء الله
على دا النفس ، وصاحبنا
عبد السلام بك المويلحي
قال ايه ؟

أبو نظارة - قال انت
يا أفندم أخبرت جملة
متظلمين من أبناء

شريف باشا أو أبو شرف !!
الوطن اللي كانوا طالبين حقوقهم بأن لهم نواب ينظرون في
شأنهم ، فكيف بدون أن ما ننظر في شيء تأمرنا جنابك
بالانصراف ، يعني احنا عبيد أبوك ؟ فاذا انصرفنا كما ترغب
وسألنا الأئمة ، وقالت يانواب ، ماذا فعلتم وأى فرده بطلتم
وأى مظلوم خلصتم وأى مصيبة خففتم ، ياهل ترى نجابوهم
مثلما حضرتك جاوبت أصحاب الجرايد أن لالنا نواب ولا شورى ،
وليس فينا من يفهم وكلنا على جهل ، لانحسن الخطاب ولا ندرى
الجواب ولا فينا عشرة أشخاص يفهمون عبارة ولا يدرون إشارة ،
مع علم سيادتك بأن اذا انفض المجلس على غير طایل فكن ميمن
أن الأئمة لا ريب تلقى المسئولية على الوزارة .

أبو خليل - يحرس ذا الغم ، طيب وباقي الأعضاء قال ايه ؟
أبو نظارة - صاحوا بأعلى صوت وقالوا تعيش الحرية .
أبو خليل - أما الجماعة اتجعدنوا وعملوا الواجب ، بس أنا
بستغرب ازاي سكتوا لهم ؟

أبو نظارة - الجندي اليومين دول بعييد عنك ٠٠ (١) في
لباسه لعله أن شيخ التمن زعلان عليه وحلف يمين معظم بالله
وبرسوله بأن يخلع عدو أمة محمد ويولى محله المتصف بالحلم
فعلى شأن كده أبو السباع بيطنش ٠٠

وهكذا لم يخل عدد من التعليقات على تصرفات رياض باشا
حين كان وزيرا للداخلية أو رئيسا للحكومة ، ومن التصرفات
التي أقلقت بال يعقوب بن صنوع هذا الارهاب الذي شنه رياض
على الصحف المصرية في أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقد صادر صحفا
وأغلق صحفا ، ويقول المترجم له « على شأن جرنال فتاة مصر
مع جرنال الميمون وجرنال التجارة ومصر الجاري طبعهم
باسكندرية تكلموا في صالح الوطن أصدر أمره بتعطيلهم ، وقد
كان وجري تعطيل الأربعة جرائيل المذكورين في أسبوع
واحد ٠٠٠ »

إن الضغط الذي لقيته صحافة مصر ، لقيه أيضا أبو نظارة
من حكومة رياض ، فقد صادرت صحيفته ، الأمر الذي دعاه
كما ذكرنا من قبل الى تغيير اسمها حتى يتيسر ادخالها الى مصر
وقد حاول أن يصدر صحيفته الجديدة والى جانبها صحيفته القنينة .
ولكن ذلك تعذر عليه ، فقد كان فوق مقدوره أن يوالى
صحيفتين معا سواء في تحريرهما أو في تمويلهما ، غير أن تغيير
الاسم لا يضمن مطلقا اختلافا في السياسة ، بل اننا اذا أنصتنا
الى أى صحيفة جديدة فكأنما نقرأ أو نسمع الى أبي نظارة زرقا
أو الى رحلة أبي نظارة الولي ، لذلك كان اختفاء (أبي نظارة
زرقا) أمرا لم يسيء الى تاريخها قط فقد عادت بعد سنوات كما
سنبين في فصول مقبلة ، واحتل مكانها في تلك الفترة عدد من
الصحف الأخرى ، جرت على سياستها تماما ، وهى - أى تلك
الصحف الجديدة التى سبت الفراغ - تعتبر فى ذمة المؤرخ
امتدادا لأبي نظارة زرقا ، لذلك ، يحسن دراستها على ضوء
هذه الحقائق دون نظر الى أى اعتبار آخر .

النظارات المصرية

كانت مجلة (النظارات المصرية) احسدى الفواصل التى قطعت على (أبى نظارة زرقا) سيرتها ، فقد احتلت مكانها جزءا من السنة الرابعة لصدور صحف يعقوب بن صنوع ، وان كانت النظارات المصرية قد صدرت قبل اختفاء اسم المجلة الاصلية ، وان كانت أيضا تختلف معها فى الحجم ، فهى تشبه الكتب الصغيرة المعروفة ، وأبو نظارة زرقا فى حجم مجلاتنا المعاصرة التى تماثل روز اليوسف والجيل الجديد وما اليهما .

صدرت (النظارات المصرية) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، « جريدة تاريخية علمية تحرير مصر واسكندرية » ، وقد أشار الى قرب صدورها صاحبها يعقوب بن صنوع فى العدد الثلاثين من صحيفته أبى نظارة زرقا وهى فى عمومها تشابه من حيث التحرير والانشاء صحف المترجم له الأخرى ، غير أنها تختلف عنها فى كثير من الموضوعات التى عالجتها كما أنها مطبوعة على الحجر بخط جميل ، ويحتل صدرها دائما رسم يمثل فكرة من الافكار السياسية التى كانت تشغل بال الجماهير فى تلك الأيام ، وبعد صدور عدة أعداد منها ، رأينا فى الصفحة الأخيرة رسما معينا يسجل رأيا معينا بالاضافة الى الرسم الاصيل المنشور فى الصفحة الأولى .

كان أول موضوع عالجته (النظارات المصرية) متصلا فى أكثره بانشاء المجلة وأسباب هذا الانشاء ، وقد جاء هذا كله تحت عنوان « جلسة يوم الجمعة المبارك فى محفل محبين الوطن تحت رئاسة أبى نظارة معظمة » والحاضرين الرئيس وكاتب اليد وأمين صندوق والخطيب والشاعر وجميع أعضاء الشركة ، وبحسن ونحن نؤرخ لهذه المجلة ، التى لم يطل عمرها اذ صدر منها عشرة أعداد فقط ، أن نسجل مايعتينا « من جلسة يوم الجمعة المبارك » تلك ، ففيها ايضا لحسن الصحيفة ، وبيان واف عنها ..

الرئيس - بسم الله الرحمن الرحيم ، اهدنا الصراط المستقيم ،
واحفظنا من شر وزارة الواد اللثيم . اتلى علينا يا حضرة كاتب
يدنا اخبارك المهمة .

كاتب اليد - سمعا وطاعة يارئيسنا المحترم ، ورد لنا خطاب
ظريف من أستاذنا الجليل أبو نضارة زرقا وبه يفيدنا أنه اتفق
مع الموسسيوراجنو الطبيب بباريز على نشر جريدة النظارات
المصرية التي نحن عازمين على تأليفها لتتوير أبناء وطننا العزيز
وارشادهم في سبيل الحرية ، فالمسيوراجنو قبل وعين للنسخ
شخص على معرفة عظيمة في لغتنا العربية ، وتعهد بأن يطبع
خمسة آلاف نسخة من كل عدد ويرسلها بطريقة حسنة الى
وكلائنا للبيع . .

الرئيس - أبو نضارة زرقا رجل لطيف ويستحق أفخر
المدح لكونه يسعى دائما فيما ينتج منه تهذيب وتنوير وشرف
أولاد بلده . .

أحد الأعضاء - آمال فيه بطل أو رايح يبطل نضارته ؟
الرئيس - هو الله يحفظه قبل ارتحاله من ديارنا كان أوعد
بنشر ثلاثون عدد بصفة رحلة ، فعندما انتهت الأعداد المذكورة
جميعتنا الشريفة التمسست منه بأن يكتب ثلاثون نمرة أخرى .
فامتثل لأوامرنا وفعل ذلك ، فالآن يجب علينا بأن نتبع قدوته
ونرفع عنه هذه المشقة ، ونجاهد نحن مثله في ميدان الحرية
وحب الوطن . .

الخطيب - أبو نضارة زرقا اكتسب له اسم لا يموت بل يصير
حي خالد بعد موته .

الشاعر - كما قال أحد شعرائنا .

أخو العلم حي خالد بعد موته

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماشى على الثرى

يعلمن الأحياء وهو عنديم

الخطيب - الله الله ! ما أعذب هذه الآيات ! ربنا ما يحرمنا
منك يا شيخ يوسف يا شفاعوى يا شاعرنا العزيز ، أما احنا
يرجع مرجوعنا الى أمر جرنالنا الجديد .

أمين الصندوق - أنا بناء على أمر رئيسنا المحترم أرسلت

الى الطبع الدرامم اللازمة الى طبع العدد الاول والثاني، وحين
يصير بينهم هنا واسكندرية ، جميع الارباح التي تنتج من
بعد المصاريف نفقها على مساكينا الذين يومية في الزيادة لكثرة
ظلم الحكام وجورهم .

كاتب اليك - جزاك الله خير يا امين صندوق ، وأنا انسح
جميع المقالات والمحاورات التي يتلوننا علينا اعضاء شركتنا
الخيرية وارسلها اليه ، واكتب خطاب لاستاذنا ابو نضارة زرقا
واترجاه بانه يتفضل علينا ويكتب لنا مخاطبة ظريفة يوضح
لنا فيها رأى جرايد أوروبا من ظلم فرعون الاكبر مدة تسلطه
على برنا .

الخطيب - حضرة الشيخ يوسف الشفعاوى شاعر محفلنا
الشريف مؤلف الرحلة المشهورة في تاريخ المطرود التي درجها
في رحلته جمس أبو نظارة زرقا كتب مقامة عظيمة في هذا
الموضوع .

الرئيس - سمعنا ياسيدنا مقامتك الظريفة !
الشاعر - ولو أنها ليست في محلها . مع كل ذلك سمعا
وطاعة .

وهكذا شرحت جلسة يوم الجمعة المبارك سياسة المجلة ،
وهي نفس السياسة التي عرفناها عن مجلاته الثلاث التي
صدرت من قبل ، وتجد في (النظارات المصرية) أيضا نفس
الموضوعات التي طرقت في أكثر من عدد في صحفه الأخرى
فنقرأ « المقامة المصرية » التي جاء ذكرها في (الجلسة) ونرى
تمثيلية لطيفة من عدة فصول ، وقمت حوادثها « في سوق
السلاح بين زمزم بياعة عيش فارشة على الأرض ، وابنها
رضيع على يدها ، ودبوس أغا قواص تحصيلات الفرد ، وهي
تعرض لنا صورة من قسوة الضرائب المفروضة على صغار
الباعة ، وصلف الموظفين وجبروتهم ، وتدخل الأجانب في
أخص مسائلنا ، ثم يمضي المحرر فيقدم المحاور التقليدية بين
(أبو خليل وأبو نضارة) على طريقته المتبعة .

وإذا كنا قد لاحظنا أن صحف يعقوب قد هاجمت رياض
باشا في أكثر من موضع ، فإن النظارات المصرية تعتبر صحيفة
(تخصص) في الحملة على ذلك الوزير المصري الذي تسميه

« أبو ريشه » ويدخل في هذا التخصص أيضا الوزير نوبار ، وقد رأينا في أحد أعدادها محاورات خاصة بما نشرته جرائد أوروبا عن « الواد الأهبل والوزير نوبار ورياض » وفيها تعليقات شديدة اللهجة تجاوزت المفهوم في ذلك الزمان ، وخاصة تلك التعليقات التي جاءت في معرض التحدث عن « محفل محبين الوطن تحت رئاسة أبي نظاره معظه » وقد افرد هذا العدد تقريرا بما أشرنا اليه وحسبنا هذا الحديث الطويل الممتع عن الحسين ألف جنيه التي دفعت رشاي في تركيا في سبيل الحصول على فرمان تولية توفيق للاركة الحديوية ، بينما الشعب المصري يتضور جوعا ويموت أبناؤه بالعشرات نتيجة البؤس والفاقة ، وينوء أغنياؤه بالضرائب الباهظة التي أنسدت عليهم طعم الحياة .

ويصور يعقوب بن صنوع الخصومة التي بين رياض وبين الصحفيين الأحرار ، وعلى العنف الذي اتبعه معهم ، حتى وصم عهده في شئونهم بأنه عهد المحنة التي لم تر لها مصر شبيها لا من قبل ولا من بعد ، فقد أغلق الصحف وصادرها ونفى كثيرين من الكتاب وأصحاب الجرائد في سنة ١٨٨٠ وفي مقلمتهم أديب اسحق صاحب جريدة (مصر) وهي جريدة وطنية أصلها هذا الشاب معبرة عن رأى الحزب الوطني ويقص علينا المترجم له قصة رياض مع أديب في « محاورته بين الواد المرق ووزيره المشغلق » ومفهوم أن « المرق » هنا هو الحديو توفيق ، الذي اعترض على رياض في أحد الموضوعات فقال : -

الوزير - يظهر أنك اطلعت على جوناك مصر الى قفلننا هنا وفتحوه في ياريز ، ماتسمعش كلام الواد أديب ، ده رجل طويل اللسان يعرف له كلمتين ثلاثة نحر يتباهى بهم .. ياريتك سمعت شورتي كنا سقيناه (١) وخلصنا منه ومن شبكته هو الثاني ، لأن مع الشبان اللي من العينة الحبيثة دي اللي تتجاسر وتحكي في حق أسيادها ، المعروف ماينفمش ولا يجوش الا بالمتلوف .

الواد - طيب ونسكت الغريرت ده ازاى كمان ؟

١ - يقصد سقيناه القوة المسومة .

الوزير - اذا سمعت شورتى وخلصت على أبوشرف وبأباراغب
وعمر لطفى وعزى وثابت وحيدر وشاهين والمفتى والبكرى
اللى جميعهم أعداك ومايلين لم أبوك ، يسكت أديب القبيح ،
لأنه هو رايد لهم ومحسوبهم ، وفى الواقع احنا ماحناش
قدر لسانه .. كلب ينتش لحمه ، أسكت يا أفندينا أنا منقاط
من الجدد ده واللى يحكمنى عليه أقطم زمارة حلقه لأنه هو
اللى بيهيح العالم علينا بكلامه اللى زى الرصاص ..
وحقا لم يكن توفيق ولا رياض بكفتين للأديب الكاتب
أديب اسحق . فقد أصدر فى باريس جريدته باسم (مصر
القاهرة) نشر فيها عدة مقالات ، تعتبر فى ذمة التاريخ من
الروائع التى كتبها صحفى فى جريدة سيارة ، وكانت تلك
المقالات تعبر عن أمانى الحزب الوطنى وأحرار البلاد . وفى
مقدمتهم شريف باشا وأنصاره من الديمقراطيين .
ولا تعنى الحملة على توفيق ورياض وغيرهم من أصحاب الشأن
أن ابن صنوع قد انصرف عن اسماعيل ، فذلك أمر لا يستقيم
مع طبيعة الصحفى المجاهد الذى لا ينسى الاسائة ، والذى هاجر
ليوظف قلمه فى فضح سيرة الخديو ، وقد قرأنا له فى هذا
المعنى لونا جديدا لم يلجأ اليه من قبل ، حمل فيه على اسماعيل
وعرض لحياته فى إيطاليا ، وهى صورة لطيفة جاءت تحت
عنوان (الاصباح الاول) ننقل منها فقرات من الصفحات
الست التى استغرقها هذا الموضوع .

- أرميا - كيف جالس فى نابولى لوحده الأمير ؟
أبو نظارة - لأن الناس الظاهرة تبعد عن الخنزير .
أرميا - من يسكن الآن فى سراياتك الفاخرة يا فرعون ؟
أبو نظارة - الفيران لأن بنبيصها فى المزاد لبغ الديون .
أرميا - كيف صبح الخديوى الجليل أذل الامراء ؟
أبو نظارة - لكونه استهزأ بالملوك والوزراء .
أرميا - يبكى اسماعيل فى الليل ودموعه على خده .
أبو نظارة - نعم ومن غيظه .. (١) ووجهه بيده .
أرميا - ما فضل له معز من محبينه .
أبو نظارة - لكونه ظلم شعبه وكفر فى دينه .
٨ - هنا لفظ يف التلم عن تسجيله .

أرميا - فى يوم الضيق أصبحابه تبرؤا عنه وفاتوه .
 أبو نظارة - من خوفهم لكونهم فى هلاك العالم ساعدوه .
 أرميا - ارحم يارب وافرج على اسماعيل .
 أبو نظارة - الله لا يرحم من خرب وادى النيل .
 أرميا - صبحت الجيزة والجزيرة والعباسية وعابدين .
 أبو نظارة - نايحة على اللى بناها من دمنا فرعون اللعين .
 أرميا - عيب على أهل مصر تفرح وترقص فى الطريق .
 أبو نظارة - معلوم تفرح فى سقوط وطرد قاتل الصديق .
 أرميا - صبحت سراريه مزلات وهى فى مرارة .
 أبو نظارة - بلا هلس ، دى قالت له فى داهية ياشيخ الحارة .
 أرميا - ليلا ونهارا يتندب عليه السرارى الجمالات .
 أبو نظارة - الوالدة باعتهن وبينيسطوا عند العايقات ،
 ومن وقتها فى مصرنا زاد ، بين الشبان السكر والفساد ،
 وألطف جدعان دمياط ورشيد واسكندرية ، نزلت على .. (١)
 وصرفت من الجنيهات بالميه ، وشافت لها المفاسيد فى مصرنا
 يوم ، نزلت مع سرارى فرعون فى بحر المحبة عوم ، والكم
 صبيه اللى أخذها معه فرعون ، لتسليه على همه فى بلاد
 الماكرون ، يخططوها منه فى نابلى الجدعان ، رغما عن أنفه
 وأنف الخصيان ، ولسبه ياما يشوف من الهوان اسماعيل ،
 ربنا يعاقب الظالم انما باله طويل .

وهكذا يستمر الكاتب مؤرخا لاسماعيل وسيرته فى مصر
 وإيطاليا فى هذا (الاصحاح) الطريف ! ويستطيع قارى هذا
 الفصل الممتع أن يدرس تاريخ الحديوي الخاص بتفاصيله وماخفى
 منها كما أنه صور لنا لونا من ألوان الحياة الاجتماعية التى
 عاشتها مصر فى عهده ، سواء اتصل ذلك بالبيت المالك أو
 اتصل بعامة الناس ، فقد شرح لنا كثيرا من مفاصل العصر ،
 موضحا الانهيار فى النظام الاجتماعى الذى أصاب الحاكم
 والمحكوم على السواء .

وقد تفردت مجلة (النظارات المصرية) بهذا اللون من
 الحوار الغريب بين اسماء أصحابه وفى سجنه ، بل لعلها
 كانت أول صحفه التى نشرت حوارا مسجوعا ، هذا إلى تميزها

عن الصحف الثلاث الأولى بنشر أخبار قصيرة عن الحالة المالية والاجتماعية والسياسية والحلقية في مصر ، وكلها تنعى المفاسد التي يرتكبها الحديو توفيق وأنصاره من عمدومشايع ومديرين ووزراء ، وعلى رأسهم خصم أبي نظارة الأول رياض باشا أو (أبو ريشه) كما تسميه .

وقد اتهم يعقوب بن صنوع منذ نفى من مصر بأنه صنيعه البرنس حلیم الذي كان يدعو له ويرجو أن يعين اميرا على البلاد ، وقد رأينا في (النظارات المصرية) نفا لهذه الشائعات التي أطلقها أعوان توفيق ، وقد ذكر أن (الواد الأهبل) أي توفيق ، بعث اليه يطلب عودته الى مصر عارضا عرضا معجزيا من الناحيتين الأدبية والمادية « انما أنا ماقبلتس لعلمی أن الابن أذرت من الاب « ثم يبين في حديثه سخط الشائعة التي تزعم أن حلیم أمد به المال ، وهذا أمر متعذر لأن « اسماعيل ماخلاش أموال عند حلیم باشا ينفق بها على محررين جرائيل مثلنا « ويبين أن المال الذي يحتاج اليه يحصل عليه بقرق الجبين « اذ لنا صنایع بنربح منها ونصرف على جرايدنا وهذا لكثرة محبتنا في استقلال وطننا .. فاناصنعتی خوجة السن ، والله الحمد لي في باريز تلامذه عديدة ، وبكتب في جرايد انكليزية وفرنساوية ونمساوية وإيطالية ولى عليهم مرتبات أيضا ، فهكذا أنا مبسوط ولست مفتقرا لمساعدة أحد .. » وهذا اعلان صريح وجبت اذاعته ردا على خصوم المواطن المنفى ، وقد اختار له النظارات المصرية ، فانفردت به دون صحفه الأخرى .

وقصارى القول في (النظارات المصرية) انها تكاد بحجمها وموضوعاتها ، تنحرف كثيرا عن صحف يعقوب بن صنوع الأخرى ، حتى انه ذكر على أعدادها « السنة الأولى » وكان المفروض أن تكون السنة الرابعة في سيرة مجلاته المختلفة ، لأنه حين أبطل إصدارها ونشر « أبو صفارة » ذكر على الأخرة (السنة الرابعة) كان أبانصفارة وصل ما انقطع من أبي نظارة زرقا ، وليست صحيفة جديدة كالنظارات المصرية ، وهي أي - أبو صفارة - ليست جديدة في شيء يتصل بالفنكل أو بالتشعوع كما سنرى في الفصل التالي ..

أبوصفارة ..

هي وصل ما انقطع من مجلة أبي نظارة زرقا ، وهي تكملها
لها وصورة مطابقة في الشكل والموضوع . صدرت
(أبو صفارة) في السنة الرابعة من تاريخ صحف يعقوب بن
صنوع ولم ينشر منها الا ثلاثة أعداد فقط ، ثم أمرت الحكومة
المصرية بمصادرتها ، وتعذر عليه متابعة اخراجها بهذا الاسم .
كما أشرنا الى ذلك في أكثر من موضع ، وهي كما يقول محررها
« جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية ، يحفظهم
رب البرية من المظالم الفرعونية ، فنشئها محب الاستقلال
والحرية » .

صدر العدد الأول من (أبوصفارة) في ٤ يونية سنة ١٨٨٠ .
أي بعد اختفاء (النظارات المصرية) بنحو ثلاثة أشهر ، وقد
ذكر لنا يعقوب أسباب مصادرة وإغلاق صحيفته « النظارات
المصرية » ذكرها باسم غريب ، قال انها (الغدارات المصرية) .
وكان في وسعنا أن نعتبر ذلك خطأ في النقل لولا أن الاسم
تكرر في أكثر من موضع ، حتى انه أطلق على اسم صحيفته
(الغدارات) و (الغداة الزرقاء) ويحدثنا عن آخر عدد من
النظارات المصرية على لسان مدير البوسطة « ... انما هو
يكون فرق الجرائيل - على جميع سكان وادي النيل - والعدد
العاشر من الغدارات المصرية - التي أمرنا بتعطيله لكون عليه
صورة حلیم - فرقوا يعني باعوا منه عشرة آلاف وخمسمية ... »
ولم تنشر حلیم صورة الا في صدر العدد العاشر من النظارات
المصرية .

ومما يؤكد وجهة نظرنا في أن يعقوبا انما يعني (بالغدارات)
صحفه المختلفة قوله « أنا صار لي ثلاث سنوات - بأقول إنكم
يا أخواني وأعياد - في الغداة الزرقاء وفي الغدارات ... »
ثم يقول في مكان آخر عن شعور مواطنيه حين ترامي اليهم
مصادرة النظارات المصرية وإغلاقها « واحنا يا شيخ كنا في غاية
القلق عليك ، وكان اللي يضربنا بالقولة تطلق ، لما شلفنا في

الحراويل المحلية أن الغدارات المصرية صار تعطيها ٠٠ وفي الواقع ولو أنهم عطلوا الغدارات بعد العدد التاسع - أنت ماخبيتش أملنا وبرضك نشرت العدد العاشر ورسمت عليه صورة حبيبنا أبو الحلم الشريفة ، وأرسلت لنا منها آلاف من النسخ ٠٠ وحصل لنا غاية الفرح والسرور بمطالعتها لكونها مبشرة بخلق الواد الأصيل وأبو ريضه اللعين ٠٠ « وهذه هي محتويات العدد العاشر من النظارات المصرية التي طبعت وفي صدرها صورة حليم وفي طياتها حديث عن أماني يعقوب في عزل توفيق ٠٠

وقصارى القول في هذه الأعداد الثلاثة من (أبوصفارة) أنها مضت على سجية مجلات المترجم له الأولى ، ليس فيها



حديث لافي صورها ولا في موضوعاتها ، غير أنها اشتملت على اتفاق مع صحفي معروف وخلاف مع صحفي كبير آخر ، أما الاتفاق والاعجاب فيتصلان بالقس لويس صابونجي صاحب مجلة النحلة

التي كانت تصدر في لندن إذ ذاك فقد نشر صابونجي مقالا باللغة

الانجليزية أَرْضِي يَعْقُوبُ بْنُ صَنْوَعٍ

فأشاد بالمقال وصاحبه ، وكتب

يقول « ومن أراد منكم يقرأها

يا اخوان - فيجدها مترجمة بالعربي بأفصح لسان - في

جريدة النحلة عدوة الكسل - التي كلامها أحلى من العسل -

ومحررها بلندره الفاضل سيدى الصابونجي اللطيف - فلكونه

صابونجي كلامه نقي ونظيف - وجرتاله مملوء من مواعظ وحكم

فريدة - ومقالات في الآداب والعلوم والفنون مفيدة - ترشد

القارئ في طريق التمدن والكمال - وتطرب الشاعر لكونها عذبة

لذينة الأقوال - حفظ الباري من كل شر منشيها - وطرح الله

لنا البركة فيها »

بهذا الأسلوب الرقيق ، وبهذه المشاعر الدقيقة أكرم كاتبنا زميله في لندن ، لأنه دأب على نصرة القضية المصرية والدفاع عنها في شتى المناسبات ، أما الصحفي الآخر الذي حمل عليه يعقوب حملة شعواء فهو واحد من أعلام الصحافة العربية الذين لا ينكر فضلهم ، هو أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة (الجوائب) كبرى صحف الشرق العربية التي كانت تصدر في الأستانة ، وقد كان الشدياق صديقا للخديو اسماعيل وأبى أن ينشر مقالا رسميا من الحكومة التركية يتضمن الاسماء إلى صديقه ، فمطلت صحيفته لذلك عدة شهور .

وقد دأب الشدياق على تحية ابن صديقه خديو مصر توفيق في صحيفه (الجوائب) فنشر له يعقوب بن صنوع كتابا مفتوحا بعنوان (من أبى صفارة ببساريس الى حضرة محرر الجوائب بالاستانة) جاء فيه : بالله عليك يا شيخى يا بولى بيضاء محترمة تفضك من كتابة مقالات لا ينتج لشرفك منها الا العار والاحتقار - انت بسم الله ماشاء الله رجل عالم وفاضل ، وأخو العلم حبيب الحق وعدو الباطل ، فكيف تحط الساق على الساق وتنجس قلمك بتحرير أقوال فى مدح من لا يليق - مثلى رياض وتوفيق ؟ ده كلام عيب يامى الشيخ ، وما حدش من زملائك يرضى به خصوصا داعيك اللى يوقرك ويعرف مقامك - أهو باقول لك التوبة دى بالمعروف يعنى بالتى هى أحسن ، وإذا ما قبلتلى النصيحة والله التزم أدرج فى جرنالى القادم جميع مقالات أبناء مصر فى حقك يا فارس ، وتبقى من غير مؤاخذه تهتكة وجرسه . . ثم لا يكتفى أبو نظارة بتهديد الشدياق بل ينشر مقالا مقذعا فيه ، استغرق صفحة كاملة ، معتذرا بأنه اضطر الى نشره لأن صاحبه : أقسم بشرف والد وجد يعقوب ، أن ينشر بمجرد وصوله

واحتوى العددان الثانى والثالث حديثا رائعا عن دى موسى



صاحب الجوائب ، صديق
اسماعيل وخمس صنوع

العقاد والضابطان أمام الواد
الأهبل ووزيره ، وهو يقص في
هذين العديدين ماصنعتة الحكومة
مع موسى العقاد الوطني المصري
المعروف ، ومدى الظلم الذي أوقعتة
به وبمجموعة من ضباط الجيش ،
ويعرض لنا دور رياض باشا في
هذه المأساة ، سواء بالالفاظ أو
بالرسوم ، في أسلوب غاية في
العنف والشدة ، الأمر
الذي ترتب عليه منعها
من الدخول الى الديار المصرية ،

وفي ذلك يقول أبو نظارة : « قلت ياربى نور عقلى
وفهمى ، وانصرنى على الواد الأحمرد مصطفى فهمى ، الذى أمر
بتعطيل صغارتى البهية ، العزيزة عند الشهبان المصرية ،
فأجابنى من السماء سيدنا جبرائيل ، وقال لى يا حبيب وادى النيل
اعلم أن أبو ربيعة اللعين والواد ، لما قرءوا الثلاثة أعداد ، التى
نشرتهم فى الصفارة ، طلع الدم فى راسهم وعملوا غارة ..
فحالا وأمر يرف للبوسطة الفرنسية بحجز العدد الثالث من
الصفارة المحمية ، انما سعادة مدير البوسطة كان من زمان
فرقها ، ووكيل أوغسطينى على الزبائن وزعها ، فأرسل من
وقتها من غيظه ناظر الخارجية ، صورة الدكرىتو للجرائد
المحلية ، وبه يقول ان من حيث جرنال أبو صفارة ، هو من
تحرير الشيخ أبو نضاره ، فلزم منع دخوله فى الديار المصرية
لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية .. »

وقد كان يعقوب عنيفا حقاً فى حملته على الحديو وحكومته ،
غير أنه كتب فى موسى العقاد خير ما كتب فى مرآطن يستحق
تقدير وطنه ، وقد استغرق مدح العقاد الصفحة الأولى ومعظم

الصفحة الثانية من العدد الثاني .

وقد جاء في هذا المقال « أول كل شيء ، يا حبيبي يا مصرى ،
يانور عيني يا فريد مصرى ، يا فخر أبناء الشرق أجمعين ،
أهنيك على عدم خوفك من الظالمين ، وهم الواد الأبهيل الرذيل ،
ووزيره عدو وادى النيل .. ياما حصل لى انشراح وسرور ،
حينما بلغنى أن سى موسى المشهور ، الرجل الحر حبيب الحق ،
خلى أبو ريسه من الخيط يطق .. والله عقارم عليك يا عقاد ،
ما تخافشى من أبو ريسه والواد . دول هوانم ماهمش رجال ،
ويظهر من فعلهم أنهم أندال ، لأنه لو كانوا صحيح حكام ،
ما كانوا يشهروا عليك فى الظلام ، ويهينوك ياسيدى يا شريف ،
انما برضه ربك حلیم لطيف ، ينجيك من أيدي هؤلاء الكلاب ،
وللنصر يفتح لك ألف باب » .

ثم يبلغ الثناء على العقاد أقصاه ، وذلك فى قوله « انت
استمر على دا الشهامة والجداعة وكن ميقن يا حبيب ، أن الفرج
جاي من قريب ، ما عليهشى انت تحمل جور الظالمين ، يلطف
يا أبناء مصر رب العالمين ، دى جميع الجرائيل الفرنجية ، كتبت فى
حقك مقالات مدحية ، ومن جملة ما قالت هؤلاء الجرائيل ، قالت
أن موسى الأول كلیم الله نجا أبناء اسرائيل من المظالم الفرعونية ،
وموسى الثانى سوف يخلص الديار المصرية .. »

وهكذا سار أبو نظارة على هذا الدرب فى معالجة الشئون
السياسية ، وبيان قيم الرجال ، يهجو خصومه أحيانا هجاء خلا من
العرفه ونزل الى الحضيض فى المعانى والعبارات حتى ليصدقنا
ذلك ، فنأبى تسجيله فى مطبوع ، ويمدح أصدقاءه فيقول فى
ذلك غلوا يشكك فى قدر الثناء ، غير أنه فى الحالين يترك لنا
تفسيراً للحوادث وتصويراً للأشخاص ، لا يمكن أن نغض الطرف
عن نواحي الصلوق فيهما ونحن نفسر التاريخ على ضوء الوثائق
الشعبية ، وأبو نظارة وثيقة شعبية جديدة بالنظر والاعتبار .

أبوزمارة ..

أبو زمارة هي إحدى مجلات الضرورة ، ان صبح التعبير ،
الضرورة التي فرضت على يعقوب بن صنوع أن يشير في
أسماء صحفه ليستطيع ادخالها الى مصر ، وأبو زمارة
من حيث الشكل والموضوع صورة مطابقة لأبي صفارة وامتداد
لأبي نظارة زرقاء مع اختلاف في الرسوم والاشكال ، ولكنه
اختلاف يسير ، ولولا تغيير الاسم لعز التفريق بين الصحيفة
باسمها الاصيل أو باسمها اللخيل ، وقد التزم المحرر في
عدداه الأول ، الاقوال العامة المسجوعة كما كانت الحال
في الصحف الصغيرة التي أصدرها تحايلا على الحكومة
وعيونها ..

وتضمنت الافتتاحية بيانات طريفة نشرها كاملة ،
« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على أنبيائه أجمعين . أما بعد فيقول العبد الحقير أبوزمارة .
لما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجية . بفكش وكسر
الصفارة . الساعة في استحصل التمدن والحرية . قلت
ياربى نور عقلى وفهمى . وانصرنى على الواد الامرد مصطفى
فهمى . اللى أمر بتعطيل صفارتى البهية . العزيزة عند الشبان
المصرية . فأجابنى من السماء سيدنا جبرائيل . وقال لى
ياحبيب وادى النيل اعلم أن أبو ربيعة اللعين والواد . لما
قرأوا الثلاثة أعداد اللى نشرتهم فى الصفارة . طلع الدم فى
راسهم وعملوا عليهم غارة . وبعثوا ندهوا الواد مصطفى .
وبالاقلام ورموا له الخد والقفا . وقالوا له شابرق شابرق .
فارتعش فهمى .. (١) فى لباسه . وخاف من الظالمين على فقد
راسه . فحالا وأمر يرف للبوسطة الفرنسية . لحجز العدد
الثالث من الصفارة المحمية . انما سعادة مدير البوسطة كان
من زمان فرقها . ووكللى أوغسطينى على الزباين وزعمها .
فارسن من وقتها من غيظه ناظر الخارجية . صورة الديكزيتو

١ - هنا تلفظ اسقطناه لسبب لا يلقى على القارىء ..

للجرائد المحلية .. وبه يقول أن من حيث جرنال أبو صفارة .
هو تحرير الشيخ أبو نضارة . فيلزم منع دخوله في الديار
المصرية . لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية . فتأسفوا أبناء
مصر أجمعين . وظنوا أن علينا انتصر الظالمين ، انما فشروا
والله العظيم ... »

غير أنه يطلق على ذلك بقوله « .. برضنا احنا نفيظهم بجاه
الحليم العليم ، وينتزل السوق ونشتري لنا قطعة زماره ، في
الصوت والطرب تفوق الصفارة ، ونزمر فيها أدوار عجيبة ،
تندمق من سمعها الحضرة الكثيبة .. وبمطالعتة يسلي أحبابه
على همهم ، وينسيهم كربهم وغمهم » ثم يعتذر المحرر لقراءته
بأنه سيستعمل في التعبير عن أفكاره « العربي الدارج الصريح
المستعمل عند الخاص والعام ، بين أبناء مصر الكرام ، وهو
يذكر الموضوعات والمحاويرات التي سينشرها وهي على النهج
القديم ، ثم يقول ان مواطنيه طلبوا اليه « ان فضلت في جرنالك
حقة بيضا ، شك لنا فيها سيرة الواد وأبو ريشه .. » غير أن
الكاتب يطلب من مواطنيه مساعدته في تحرير ، أبو زماره .
« وان حد فيكم تفضل علينا بقصيدة ، أو بمقالة عظيمة جيدة ،
في حق رياض والواد وفلسن ، نقول له ألف بركات ورسن .. »
وهكذا حقق يعقوب في الأعداد الثلاثة التي طبعت من هذه
الصحيفة سياسته التي وعد بها ، وقد خص الخديو توفيق
بنقده العنيف الساخر المتصل ، وشرح - فيما شرح - موقفه
من أبيه وقبض يده عنه ، واعتبر ذلك زلة لا تليق بكرم « فإن
قلتوا لي ان المظروود يستاهل ده كله ، أجابكم أن يكفيه عزله
وزله ، انما ابنه اللي اشتري له الورائة بملايين ماكانش
لازم يعامله كالأجنيين ، أنا مقن قصدي أحامي عن المظروود
انما مرادى أوريكم خسارة المولود ، بقي اللي ماله خير في
أبوه وعائلته ، كيف يكون له خير في وطنه وريعتيه ، أخص
عليك ياواد يافردريك ، والله خسارة الخديوية فيك » .

ويحدثنا في العدد الثاني عن (أبو زماره) عن وصول
العدد الأول واستقبال رياض باشا له ، وهو حديث ممتع
طريف ، غير أنه لا ينشر لكثرة ما فيه من عبارات لا تليق بأن
تكون في مطبوع ، الا أنه يومية الى أن الصحيفة كانت في كل

يد بالرغم من الحكومة وعبوديتها ، كما يتميز العدد الثاني من (أبو زمارة) بكثرة المراسلات التي جاءت الى المحرر من مصر ، وهي في معظمها ركيكة العبارة ، فلا هي عربية ولا هي عامية ، كما أن موضوعاتها في عمومها تافهة لا تستحق النشر أو التعليق . . .

ويمتاز العدد الثالث وهو الأخير من (أبو زمارة) بأن المحرر قد ضاق ذرعا بمواطنيه وتكاسلهم عن أداء واجبهم نحو التخلص من الخديو توفيق ، وأجرى ذلك على لسان « الخلق » فقال « أهو حاول المسكين أربع سنين كأنه بينفخ في قربة مقطوعة والعالم بيتعجب وتقول ياترى بيحبب الكلام ده كله منين ؟ احنا بس نعرف نقرأ جرائله ونقول الله الله ياكلام حلو ، يا أفكار عجيبة وما أشبه . . » ثم يقول يعقوب على لسان (الخلق) مرة أخرى ، انه خطب وسط حشد من خاصة الفرنسيين مبينا جور توفيق وجبروته وظلمه لرعيته ، حتى بكى من فرط التأثر ، فاذا ترك منبر الخطابة ، سأل البعض ، « ان كان الأمر هكذا ، الامثالي سناكته ليه ؟ ولية بتعمل زفة وزينة في يوم عيد الواد . . ؟ بقي لازم يكونوا أولاد مصر أئذال والأئذال مايستحقوش ان يحبن الشرق والحرية يساعدهم » !

وهكذا يزحم يعقوب بن صنوع صحيفته (أبو زمارة) بشكوى مرة من تهاون مواطنيه في طلب حقوقهم المشروعة ، والسعي لإعلاء كلمة الحق والحرية ، وسوف ترى على مر السنين أن هذه الشكوى كانت متصلة وقوية ، لأن القوم رضوا الذل جيلا بعد جيل ، ولم يفرغوا منه بالرغم من جهاد الأحرار في مصر وخارج مصر سنوات وسنوات .

وهو دائب السعي في الحملة على رياض باشا أو « أبو ريضه » كما يسميه ، محمسا مواطنيه كي يقضوا على عبون هذا الوزير الذين أفسدوا ضم الناس وأخلاقهم ، وملأوا النفوس رعبا وخوفا ، وقد بين ذلك كله في محاوراة بين « الخلق » ومجدع في حديقة الأزيكية ، ونشر طرفا منها هنا كخاتمة توضيح ما كانت تسمى اليه (الزمارة) عند قرائها العديدين .

مجدع - ان كنت صحيح حلق وبتفهم الصورة ايه ، قل لي

أعمال آمنه الأمور تنصلح والأحوال تتعدل ، لأن الكيفية اذا استمرت على ما هي الناس عليه قول عليها عدمت والسلام ، لأن ذوات وأعيان ووجوه العاصمة المصرية ما يتيسر شي لأحلمهم أنه يروح يطل على صاحبه ، وده كله من كثرة أولاد .. البصاين المفتريين الساعين في قفل بيوت العالم وسبب الهلاك ده كله يكون أبو ريشه لأنه حلف بأبوه الوزان أن يخرّب ويحبس الناس الأبرياء خذاه الله . .

المخلق - وانت الثاني ان كنت مجدع صحيح كنت مع كم من اخوانك تزئق كم بصاص (١) من دول وترقعهم علقه بنت هرمه كانوا يحرموا ، انما انت وأصحابك خسارة اسم مجدع فيكم . بس تعرفوا تتكلموا في الهوا ..

وهكذا يمضي يعقوب بن صنوع على سجيته في نشر المحاورات في الزمارة كما نشرها في غيرها من صحفه منذ أنشأ تلك الصحف الى يوم قضي ، لاهوادة في خصومة من خاصهم ، ولا تراجع في ايمانه بمن وثق منهم ، صنعة الكاتب الأبي النزيه ، والصحفي النادر المثال في تاريخ عز فيه قرين لذلك الكاتب المناضل ، وقل من يقف الى جانبه في صفوف الأحرار .

١ - يقصد المخبرين .

الحاوى

وهذه مجلة أخرى من مجلات الضرورة ، الحاوى ٠٠٠ وقد صدرت عدة أعداد ، كل خمسة عشر يوما تصدر نسخة منها ، وقد جرت في سياستها ومزاجها على النهج الذى نشأ عليه أبو نظارة فى صحفه المختلفة ، ويلاحظ أنه لم يغير من مجلات الضرورة تلك الا أسماءها ورؤوس الصفحه الأولى فيها حتى تستخفى معالم الروح وراء الرسوم والاشكال ، ولا تفتن عيون الحكومة المصرية اليها ، وإن لم يغير سنوات الصدور التى سجلت على تلك الرؤوس ، فالحاوى صدرت فى السنة الخامسة من حياة صحفه الكثار ، وإن كان نصيبها فى رسالة الرجل عسدة أسابيع ٠٠

صدرت « الحاوى الكاوى الذى يطلع من البحر الداوى عجائب التكت للكلان والغاوى ويرمى القشاش فى الجب الهاوى » يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٨٨١ ، وقد سبقت صدورها كراسة صغيرة الحجم سميت (مقسمة الحاوى) وهى فى مائة واثنين وعشرين صفحة ، تضمنت كثيرا من الموضوعات المختلفة ، فقرأنا فصلا عن مجلة (الحاوى) بلهجة الشاميين زاخرا بفصائح الحكم فى مصر ، وفصولا أخرى عن السياسة الخارجية التى لها اتصال مباشر بالسياسة المصرية ، ثم عرض الكاتب « مخاطبات » بينه وبين تونسيين ، وهى من الطرائف الجديدة فى صحفه الطارئة ، ثم عنى فى هذه المقدمة ، ولعلها المرة الأولى : بأمور تونس ، ولعل أسباب ذلك ترجع الى الصلات التى بدأ يقيمها المترجم له مع باى تونس ومع غيره من أمراء الشرق ، كما ستفصح عن ذلك صحفه فى مستقبل الأيام ، وقد أكد هذا الفصل الممتع الذى نشره فى تعريب الالفاظ التونسية الطريفة ، هذا الى مجموعة ضخمة من الاخبار المتفرقة عن شئون مصر الداخلية كتعيين المديرين والمحافظين وما الى ذلك . وقد طبعت هذه المقدمة فى كراسة من الحجم الصغير ، ولم يشر صاحبها الى أسباب طبعها ، كما لم يذكر فى أعطافها موعد

صدورها ، ولم يعرف ان كانت هذه المقدمة قد نشرت أجزاء
أو طبعت جملة ، فانه لم يرقمها ، غير انها كتبت بعدة خطوط
وطبعت على الحجر ، وكان أسلوبها في كثير من صفحاتها أسلوبا
عربيا صحيحا ، وان غلب عليه طابع الكاتب الساخر والمثمل
الأصيل ..

وتتضمن الصفحات الأولى من (مقدمة الحاوى) الأهداف
التي صدرت لتحقيقها المجلة نفسها ، فيقول الكاتب « أول
امبارح ورد لى من الحدق جواب .. وقال لى فيه يا حاوى
طلع من الجراب .. فتأملت فى قوله وفهمت الكلام .. وحالا
نشرت الحاوى لسادتى الكرام .. ودرجت فيه حوادث برنا
الكريم .. وذكرت فيه اسم حبيبكم الحليم .. وزينته بأخبار
الأمم الافرنجية .. المتمتعين بالسعادة والحرية .. » .. الى
أن يقول : « بقى كل شهر مرة يصدر الحاوى ، ويخاطب
الأحباب بالعربى مش بالفرنساوى .. »

وقد عنيت (مقدمة الحاوى) عنابة ملحوظة بحوادث الخارج
وان كانت قد دأبت على روايتها رابطة بينها وبين حوادث مصر
فهو يحدثنا مثلا عن المؤامرة التي تسمى الى تنفيذها ألمانيا
ضد فرنسا ، والمجد الذي تبذله للإيقاع بين إيطاليا وبين
وطنه الثاني ، فيقول : « .. عمنا بنزرت « بسمارك » الثعلبى
البروسيانى ، لما شاف أن جمهورية فرنسا المعظمة كلما لها
الله الحمد فى التقدم والثروة والنجاح رايح بعيد عنك يطق من
الفيظ ، وقاعد يبحث لها ليلا ونهارا على مشكل يعنى خناقة
من تحت رجلين الفراخ ، فأراد يرمى فتنة بينها وبين دولة
إيطاليا المحمية ، ويجعل مملكة تونس سلم ، انما الباي الذكى
اللى يفهم الصورة ايه ، ما هوش مثل الولد الأهبل تور الله
فى برسيمه فهم العبارة . وفقس ملعوب بنزرت وراضى الفريقين
ولفض المشكل ، والله جدع . » بنزرت طلع قفاه يقر عيش .. »
فاذا انتقلنا الى مجلة الحاوى نفسها وجدنا روحا فى علاج
الموضوعات تختلف عن المقدمة بمضى الشيء ، غير أن مجلة الحاوى
تأخرت شهرا عن الصدور لأسباب خارجة عن مقدور صاحبها
« اصحوا تصدقوا يا سادة من قال - ان صاحبكم الحاوى مات
أو خرسوه الظالمون بالمال - لنندم ظهوره فى الشهر الى قات -

الحاوى صاحب شرف يا خلان - وكان يصدر جرناله لو لم يكن عيان - انما الشهر ده باذن البارى - يهيج بنوادره مرتين القارى - وينزل كالعادة بجريدته على حضرة الوزير والواد - الى عاملين صنعتهم نهب أموال العباد - ويدرج فى هذا العدد أخبار محفل ميدان الحرية - ويشهر بين الأمم شجاعة الشبان المصرية .. ثم يتحدث فى بقية هذا العدد بطريقته المعروفة عن غليان الجيش فى مصر ، واستبداد الحكومة الرياضية فى علاج شئون الوطن ..

وتتميز أعداد الحاوى القليلة التى أصدرها بتسجيل مقدمات الثورة العسكرية ، بل إن ما كتبه فيها يعتبر فى ذمة المؤرخ فصولا ممتعة لهذه الفترة من تاريخ مصر الحديث ، مع الدقة

المحفوظة فى العسرى

والتفصيل ، وإن جاء ذلك

كله فى كلامه العامى

المسجوع الذى كان يطرب

له المصريون إذ ذاك ،

وما أظن إلا أنه يطرب أيضا

المعاصرين منا ، الدارسين

هذه الحقبة من التاريخ .

استمع اليه يقول :

« وردت لنا اليوم مراسلات

عديدة ، والأخبار التى

فيها يقينا مقيدة .. قال

يوم المحمل العساكر

المصرية ، وهم غابرين

أمام الحضرة الحديدية

ماحدث منهم قال يعيش

توفيق ، والحق بيدهم لأن

الجهادية ، صبحت ذليلة

تحت الوزارة الرياضية .

يرسلوهم فى المأموريات

التي ما ينتج منها إلا العار

للممات ، وللشركس يعطوا



سيد العرب - أحمد هرايى

الرتب العظيمة . والسراري الخلو والاعامات الكريمة ، لكونهم من جنس ناظر الحربية . مساح جوخ الحضرة الرياضية ، فزعلت من الأمر ده الضابطان . وأرادوا يوروا العالم أنهم جدعان ..
 انما لكونهم أصحاب عقل صحيح ، وسعيهم دايما مليح ، تشكروا للواد وللوزير ، من ناظرهم عديم التدبير ..
 ثم يتحدث الكاتب عن عثمان رفعت وكيل الحربية « العجور المدهول المخرف المجنون » .. وما كتبه الضباط المسئولون لممثلي الدول الأجنبية ليطمئنوا على رعاياهم ، ميينين لهم أن أى خطوة ايجابية منهم لا تعنى أنها موجهة الى الأجناب « وده فكر عظيم لأن الدول أدى مرادهم - وقصدهم يدخلوا قطرنا بحجة أنهم يحاموا على أولاد بلادهم » .. وهكذا يفصل لنا أبو نظارة قصة اقالة وزير الحربية وتعيين البارودى مكانه فى جميع صفحات المجلة ، فى دقة تامة لا تختلف أبدا مع أى مصدر صادق من مصادر التاريخ ..



ممثل الجيش يشكو لشيوخ التمن أى السلطان تصرفات الحديو السيئة

وقصارى القول فى مجلة الحاوى ، انها تفقد بهامها اذا أنكرنا مقام (مقدماتها) فى بيان قدرها ، فالمقدمة عنوان حسن جدا للمجلة نفسها ، بل عندى أعز وأكرم من (الحاوى) نظرا لما احتوت عليه من موضوعات دقيقة ، واشتملت عليه من

صراحة في نيكيته المواطنين لانصرافهم عن الجد والعمل ،
وقبولهم الذل والخسف . هذا الى أن المقدمة تشير بوضوح الى
السياسة المرسومة في نويقي العلائق بين مصر وفرنسا ، فان
المترجم له قد سفر في هذه المقدمة عما يختلج به صدره من
حب عميق لفرنسا ، وتكريم لرسالتها بين الأمم والشعوب ،
وسوف نلقى ذلك ، من الآن فصاعدا ، واضحا ظاهرا في
جميع ما كتبه أو قاله يعقوب بن صنوع ..

هذا عن (المقدمة) أما عن الحاوي نفسها فقد كادت تخصص
في الثورة العربية ، ولم يكن في محاوراتها أو موضوعاتها
الأخرى شيء غير هذا الحادث الذي كانت له مقدمات ونتائج ،
سجلتها الحاوي في تفصيل جميل ، ودعت المواطنين الى التشبه
بضباطهم وجنودهم الشجعان وطرد حكومة « الواد الاحيل »
والقبض على (الواد) نفسه ومحاكمته ، وإن الكاتب لينذر
مواطنيه بأنه « ان ما خلصتوا من الواد ورياض يا جدعان -
أحلف بحب الوطن والحرية - وشجاعة التلامذة والجهادية بأنى
أمزع الجرنال وأكسر النضارة - وأبيع خرج الزمارة والصفاة
- بقي فوقوا يا أولادى من غفلتكم ووروني آمال شطارتكم -
انما يكون الامر عن قريب - وأنا حالا أجيكم بالحبيب » ..

أبو نظارة .. لسان حال الأمة المصرية

مند شهر ابريل سنة ١٨٨١ حتى توقف صدور صحفه في سنة ١٩١٠ صدرت (أبو نظارة وأبو نظارة زرقا وأبو نظارة) وهي أسماء ثلاثة لصحيفة واحدة ، غير أنها أسماء متقاربة الشبه ، غلب عليها الاسم الأخير الذى عاشت به الصحيفة أكثر من عشرين عاما .

صدرت أبو نظارة صورة صادقة لما سبقها من صحف ، ولم يتغير العنصر النفسى فيها ولم يطرأ عليه قط وهن يسقط من قدرها أو يقلل من مقامها فى تاريخ الصحافة المصرية بل ان عصرها الذهبى مقبل بعد قليل .

وقد صدرت (أبو نظارة) بعد أن صادرت الحكومة المصرية الخاوي ، وعاقبت بالنفى بعض من حملها ، ، وفى ذلك يقول يعقوب بن صنوع مخاطبا الخديو توفيق « قد أمر وزيركم بنسوء تدبيره المستحسن لدى سموكم بنفى شخصين من معتبرين البلد بسبب وجود جريدتي - معهما - » . وقد نشر العدد الأول من « أبو نظارة » فى السنة الخامسة من صحف المترجم له ، وكانت تصدر كل عشرة أيام أو كل أسبوعين ، وقليل ما كانت تزيد المدة على أسبوعين بين العدد والعدد ، وكانت بعض الأعداد تصدر فى ثمانى صفحات ، وبعضها يصدر فى اثنتى عشرة صفحة ، أما بقية الأعداد فكانت من أربع صفحات كغيرها من صحفه الأخرى ، ولها شعار هو « لسان حال الأمة المصرية الحرة » .

وتتميز أبو نظارة بالمقالات الأدبية التى نشرها يعقوب خاصة بالثورة العربية ابتداء من العدد الثانى فى سنتها الخامسة بعنوان (الصيحة الأولى) ، وهو يبصر فيها مواطنيه بخطر تدخل الانجليز ، ويدعوهم الى التآلف والتكاتف والاتحاد لانتقاذ شرفهم وتحسين أحوالهم المالية والسياسية والاجتماعية ، وهو

الخطاب خاصة الى علمائها في يخاطب فيها الامة عامة ويوجه بعض الصيحات ..

ويضيق الكاتب بمواطنيه وتكاسلهم ، فينشر بابا جديدا بعنوان (الآزفة) ويحرر فيه آزفة بعد آزفة ، يعلن فيه سحقه على رجال مصر الذين سلموا في حقوقهم ، فجعلوا انفسهم مطايا للوزراء والحدويين ، الذين استنزفوا اموال مواطنيهم وقبلوا الذل فاضحوا عبيدا وسط أمم لا سيد فيها ولا مسود ، وقد حرر هذه الآزفات بأسلوب عربي متمتع ، قلما نجد له نظيرا في صحف يعقوب المختلفة ..

وبالرغم من اعجاب يعقوب بشريف باشا فانه لم يتردد في الحملة عليه حملة شعواء حين أصدر قانون المطبوعات ، وفيه من القيود مالا يهضمه تفكير الاديب المنفى في عاصمة الحرية ، وان كان هذا القانون قد استقبل في مصر نفسها استقبالا حسنا وتظهر هذه الحملة العنيفة في رسم صدر به الصفحة الاولى ، وفيه يكتم شريف أفواه الكتاب ويربط أياديهم أمام ممثلي الاجانب الذين رحبوا بهذا الضغط ، ويقول أبو نظارة تعليقا على ذلك « اكسروا أقالمنا وسدوا ألعمانا برضنا ننتصر على انحصامنا ونكسر انكس أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيا منا » ..

قصص المترجم له مما كتب ومما نشر من صحف أن يبصر مواطنيه بما لا يملونه من خبايا السياسة المصرية وحوادث البلاد الداخلية التي كان يتمتع على صحف مصر اعلانها بأية صورة من الصور والا تعرضت للمصادرة والاغلاق غير أن يعقوب بن صنوع - كصاحب رأى - كان يمثل المعارضة المتطرفة ، فهو يمدح شريف باشا حين كان شريف بعيدا عن السلطان ، فاذا ولي أمور الحكم وأفسح المجال للبرلمان ، ورضي أكثر الناس عن الحكومة الشريفة لم يرض أبو نظارة بل كان ضمن الساخطين ، لأن شريفا لم يخاصم الحدوي توفيق ، ولم يكن من طابغ الاشياء أن يخاصم الوزير الدستوري اميرا نزل عند رأيه في احترام الدستور ، ووعد بالتمكين للحياة الدستورية في هدوء ودون قلقلة قد تفسد القضية المصرية وتسيء الى مقدرات البلاد ..

ان ابن صنوع لا يؤمن بهذا ، لذلك نراه يستعز من شريف

ويسخر حتى من حياته الخاصة ، فقد كان الوزير يهوى (البلياردو) ، ورأى الجليل هـله الهواية سنسوة تذكرها له الصحف الحصيمة كلما هاجمته سواء قبيل الاحتلال أو بعده ، وكان من بين الصحفيين الذين ذهبوا هذا المذهب يعقوب بن صنوع ، فهو يكتب متخيلا ساعرا أراد أن يخلص مصر من توفيق وشريف تلبية لرغبة يعقوب « فكذا مرادى يا شيطان ، بأنك تأمر اثنين من أهل الجان ، واحد يخطف الواد الإهليل ويرميه ، فى نابولى يا كل مقرونه عند أبيه ، والثانى يأخذ بلطف أبو شرف رئيس الوزارة ، ويسلمه فى يد أبى نظارة ، يلعب معه بلياردو بباريس » ..

ولم يخل عدد من أعداد (أبو نظارة .. لسان حال الأمة المصرية الحرة) من نقد لتصرفات الحكومة الشريفة وخاصة حملته الشديدة على « قانون المطابع والجرائد » .. وهكذا وقف يعقوب موقف المتطرفين فى مصر من شريف باشا الرجل المستورى ، الذى كانت صحافة مصر وصحافة ابن صنوع من قبل تدعو له وترجو أن يكون على رأس الحكومة ، فاذا تم لهم الرجاء لم تعجبهم سياسته المعتدلة ، ولم يرضوا عن أساليب حكمه ، فهوجم برفق فى مصر ، واشتد عليه الهجوم فى باريس ..

وليس غريبا على أبى نظارة هذا المذهب فى الرضاء والسخط على الناس ، فهو شديد الحساسية حتى ليتناقض فى رأيه أكثر من مرة فى سنة واحدة ، ويتأثر كطبيعة المصريين بالحوادث تأثرا سريعا يفسد عليه الأحكام فى بعض الأحيان ، ومن أجمل الأمثلة على ذلك قصته مع السيد عبد الله النديم ، انه يراه فى مارس ١٨٨٢ عليا من الأعلام فيقول « السلام عليك ياسى نديم باقرة عين قراء جريدة الطائف ، الله الله على ذوقك السليم ، يا حاوى الطرائف واللطائف ، أحلف بحب الوطن يا عم ، أن كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك ، ومقالاتك الأدبية نورت مصرنا ، ونبتاتك السياسية جددت عصرنا ، وحياة دقك يا عزيزى ، من غشقى فى فصولك الفريدة با ترجمها بالفرنساوى والإنكليزى » ..

ثم استمع الى رأيه فى عبد الله نديم فى ٩ يونيو ١٨٨٢ « أيها الولد الأبر ، كنت أظن أن الذمة والشرف توجبان على كل

انسان خصوصاً على من تحلى بخدمة الحرية والمدنية أن يكون متصفاً بشعار الحق والانصاف ، حافظاً للجميل لا تلفته المقاصد الشخصية ولا الغايات الذاتية عن الحق ، فقد قيل : لعن الله قوماً يضيع الحق بينهم ، ولكن لما كان لكل امرئ من دهره ما تعود ، وكان الطبع غالباً على التطبع مهما كان صاحبه ، كشفت يد الأيام ستر الخفا عما يكنه الضمير ، فاتضح الصبح لندي عيني ، وبان لي الآن خطأ ظني ، وعلمت أن الحق هو عبارة عن ترويض المصالح ٠٠ وذلك لأنني تلوت بلسان الأسف وطالعت بعين الاستقامة ماحواه عدد ثلاثة وأربعين من جريدة الطائيف الصادرة في ٢٥ جماد الثاني ، وإذا بك قد أتيت فيه ببعض جمل وعبارات خالفت فيها ما تستلزمه الذمة وخرجت عن جادة الحق والانصاف ٠٠

تلك كانت سجيّة

يعقوب بن صنوع، لا يتردد في تعديل رأيه في شخص ما إذا تراءى له انحراف في الرسالة التي اتبعها وهو لا يفرق بين كاتب أو وزير ، وقد رأينا هذه السجيّة مضطردة في صحفه جميعاً ، وأنه لم يغير رأيه قط في عدة أشياء ، إيمانه بوطنه وتحنانه إليه ، ثم مخلصته للخديوين فيما خلاعباسا الثاني وهجومه المتصل على الانجليز وسياستهم في مصر والسودان ، وقد بقي على هذه الآراء حتى قضى في سنة ١٩١٢ ، فلا عجب إذن أن رأيناه فيما بعد مادحاً لثريقت



السيد عبد الله نديم

وقد جاء ذكره في أكثر من موضع

فعلى قدر ما يقدم الوزير لبلده يجد من المترحم له التأييد والتشجيع

أبو نطاسة زرقا

لسان حال الأمة المصرية الحرة

يمضى أبو نظارة فى طريقه يؤدى رسالته الوطنية والصحفية ،
فيغير اسم صحيفته تغييرا آخر فيسميها (أبو نظارة زرقا -
لسان حال الأمة المصرية الحرة) ويتم هذا التغيير بصدر
العدد الثامن الصادر فى السنة السادسة بتاريخ ٢٦ ابريل
سنة ١٨٨٢

وقد أخذ ينشر مع المتن العربى فى كثير من الأعداد ترجمة
فرنسية طفت أحيانا على صفحات الصحيفة ، ويعتذر الكاتب
عن ذلك بقوله « وصغرت الخط لجعل محل للترجمة الفرنسى
اللى طلبتها منى جميع محررين أوروبا لدرجها فى صحفهم
الغراء ، فان شاء الله من الآن وصاعد النظارة تصدر عربى
وفرنساوى » .

ومن الجديد الذى رأيناه فى (أبو نظارة زرقا) فى عامها
السادس نشر أول نعى فى صفحته جميعا ، غير أنه نعى غريب
طريف ، انه فى اطار مستطيل مجلل بالسواد ، ينمى فيه
شاهين باشا أحد خصومه من كبار الرجال فى عهد اسماعيل
ونشره كاملا لتبين كيف تسيطر عواطف صنوع على آرائه
فى الناس ، حتى أولئك الذين فصل الردى بينه وبينهم بحجاب
ثقيل ، ولكنه لايزاعى رغبة القضاء ولا جلال الموت ، قال « لما
جائى خبر الكونت شاهين ، بأنه انتقل الى الرحمة الالهية طلبت
له العفو من رب العالمين ، وزالت كراهته من قلبى ونسيت
الاسمية لأن الله يرحمه كان قال لاسماعيل مئة ماكان الجندي
فى عز هو وناسه ، اذا تجاسر حليم ودخل وادى النيل وراس
افندينا أجيب لك راسه ، وأدى سبب كراهة أبناء مصرنا فيه ،

«نما احنا قلبنا حلیم قلنا عذاب نابولی سنتین يكفيه ، يفر
خطايه ويفتح له باب النعيم . يا أهل شاهين قتيل شيخ الحارة
اتنيلوا والطوا على الحدين ، سبع بيتكم مات فى بلاد النصاره ،
ولا كان جنبه شيخ تقى يقرأ له للمتين . آه عند طلوع روحك
ياشاهين ، ماكان حدك الا اسماعيل الشيطان ، فما خلاك
تستشهد كالمؤمنين ، ونتش من يدك يا كبدى القرآن .. »
وقد ترجم الكاتب هذا النعى الغريب الى اللغة الفرنسية ونشره
فى اطار اسود .

ثم تعود الصحيفة فتواصل رسالة يعقوب الاصيله ، وتشغل
صفحاتها بمجريات الحوادث فى مصر ، فتحذر عرابي واخوانه
من الخطر المحقق بالقضية الوطنية ، وتشرح لهم ذلك شرحا
وافيا استغرق نحو ثلاث صفحات من المجلة وأخشي ماكانت
تخشاه أن يقع الاحتلال الانجليزى للبلاد ، خطأ من المسئولين
مقصود أو غير مقصود .

وتتأزم الامور وتضرب الاسكندرية وينطلق فيها الحريق
حياتى على مبانيها . وتترامى الاخبار الى ابي نظارة فينشر
تفاصيلها ، ويبين لمواطنيه الموقف فى صفحة جلد جانب منها
بالسواد ، ثم يدعوهم الى الجهاد ، ومن قوله « يا كبدى عليكى
يا اسكندرية يا بكا عينى على سراياتك الفاخرة ، صبحتك كوم
رماد الجلال الانجليزى » ويبين كذب الانجليز بتحميل المصريين
مغبة هذا الحريق « ما لها أصل ولا فصل أخبار التلفزيون ، لأن
جميعها صادرة من كلب البحر صيمور ، فلا أصدق أن عساكر
مصرنا الاشراف ، ضد الانسانية تحصل منهم امور ، الجهادى
المصرى يموت ، فى حب وطنه العزيز ، فكيف يحرق وينهب
البيوت .. وفى الواقع الذى حصل من القتل باسكندرية ،
دا جاب علينا الحق لأنه عار ، ولو أن ابتداء من الجريح الدون
والمالطية ، الذى وزوهم اسماعيل وتوفيق وماليت الكار .. »
ثم يبين يعقوب لمواطنيه انهم اساءوا الى بلادهم اذ لم يستمعوا
الى نصيحته ولم يوقموا عريضة وينالوا فتوى العلماء بطرد
توفيق ، ثم يقول « الذى فات مات يا جندعان .. حاموا بشرف
عن بلادكم يا فرسان ولعنة الله على من يسلم روحه للعدو اسير
ويته به بكلامه الى الامة الانجليزى يشكك اليها حكومتها » انتهى

كريمة يا أمة بريطانية . انما حكومتك بالمظالم مشهورة ، انتى بتدافى فى محافلك عن حقوق الاهالى المصرية ، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المعصورة ، ويمضى مادحا الفرنسيين ، متحدثا عن موقف احرارهم فى البرلمان الفرنسى وعلى رأسهم كليمانصو ، حاملا على بعضهم لمؤازرتهم الانجليز فى فعلتهم وفى مقدمتهم جامبيتا ، ثم يشجع مواطنيه أخيرا « اليوم صبح اسمكم عظيم ، ومحبوب عند جميع محبين الحرية ، ماتخافوش ربنا كريم حليم ، ان كنتم جدعان الانكليز يطلعوا من الديار المصرية .. »

ويسخر يعقوب فى نفس العدد من توفيق سخرية لاذعة قاسية تجاوز بها الحد فى عرف أيا منا وأيامهم ، وأن لم تخل من طريف تميزت به صحف أبى نظارة ، قال « وردت الينا رسالة من مكاتينا بالقاهرة يقول فيها ان توفيق توفى لكون أهل مصر حذفوا حرف القاف من اسمه والحذف يفهم . يقول أيضا ان شبابنا وجدوا فى اسم حليم أحرف يتركب منها لفظ مليح فذلك الاهالى بمصر يتسلم على بعضها بهذه الجملة « المليح جاي لنا عن قريب » مكاتينا أسعد الله أوقاته أرسل لنا أيضا دور جديد بتغنية الاهالى على هوا المارسليزة الفرنساوية ، وترجانا بدرجة فى هذا العدد فها هو : -

أرقصى وغنى يا توفيقه ، وسلى عشيقك لورد صمور . اللي نجاكى من الحريقة . وركبك على الوابوز . ارمى طربوشه يا صبية . والبسى لك برنيطة عال . عرابى ، طلبه ، عبدالعال هنوا توفيقه الانكليزية . يا ابن البلد يا فلاح . زفوا توفيقه للكنكاح . هيا بنا . نرى توفيقه خارجة من برنا ، وهكذا يمضى مصورا الحديو توفيق فى هذا الإطار الذى لاتخرج عنه سيرة هذا الحديو فى أى كتاب علمى مدروس حين لا يدلس على التاريخ أو يكتب التاريخ خضوعا للظروف والملابسات كما كان يصنع بعض حملة القمام من مؤرخى عصرنا سعيًا وراء رتبة أو جاه ؟!

●●●
ثم يعترضنا فى دراسة هذه الصحيفة عدد واحد باسم

(أبو نظارة - مصر للمصريين) لم يكن له نصيب فى أى معنى جديد انطوت عليه أبو نظارة زرقا ، ولو أهمل فى تاريخ صحفه لما خسر الكاتب شيئا ، فقد كان عددا خاصا بتذكير أهل الذكر فى مصر بما سبق أن كتبه لهم من ستة شهور عما يلقونه اليوم من أحداث .

ثم يتلو هذا العدد ، عدد واحد باسم (أبو نظارة زرقا - لسان حال الأمة المصرية الحرة) ثم تختفى الفقرة الأخيرة المكتوبة تحت الاسم الأصيل ، وهذا العدد الختامى من تاريخ هذا الاسم يتضمن حديثا عن أبى نظارة وما سعى اليه فى انجلترا كى يحول بين عرابى والاعدام ، ومدى ماعرضه الانجليز من رشاوى ورفض أن يقبلها ، وسعيهم لنقله الى لندن حتى تصدر صحيفته من هناك ، وكيف أبى أن ينصت اليهم ، أو يخون فضية بلاده التى وقف عليها حياته .

وحقا وقف قلمه على خدمة القضية الوطنية كما سنرى فى مستقبل صحفه الكثار ، ولم نر قط تهاونا فى كفاحه أو ياسا من استقلال وطنه وتمتعه بجميع الحريات .



أبو نظارة زرقا

صدر العدد الأول من (أبو نظارة زرقا) في مطلع العام السابع من تاريخ مجلات ابن صنوع في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣. مصدرا بافتتاحية دعا فيها صاحبها لبنى وطنه بالعز والتأييد حتى يصبح الفقير غنيا والأعمى مبصرا والعقيم منتجا ، كما حمل فيها على اسماعيل وتوفيق وابنه عباس ، وإن كان فيما بعد سيشفل عباسا بالعطف والتشجيع ، وينهى المترجم له افتتاحيته بدعوة مواطنيه الى الاشتراك في « النظارة الزرقاء الشهيبة » ويطلب اليهم أن يسرعوا « في ارسال العشرين فرنك - قيمة اشتراك الجريدة في السنة ، بخوالة بوسطة أو عن يد بنك . . »

وقد تميزت (أبو نظارة زرقا) بكثرة الرسوم فيها ، فوجد في الصفحة الأولى والأخيرة رسمين يبران عن معنى من معاني الساعية ، كما نجد كلمة (زرقا) بدون همزة ، الى جانب تفاصيل واضحة عن المجلة ، فنرى صاحبها واقفا بين رسمين يمثلان الحكمة والحرية وإن تغير رأس المجلة بين آن وآن ولم يتغير اسمها على أي حال .

وكلما قلبنا في صحف يعقوب وجدنا طابع الصحيفة وأهدافها. أهم ما فيها ، فهي سجل عظيم لاحداث مصر ، يحسن الانفوت. الفرصة ، فننقل عنها بعض هذه الاحداث لنبين طريقة النظر الجديدة في الصحافة المصرية ، هذا الى أن خط المجلة قد تحسن بشكل ملحوظ ، ونظم عرض الموضوع فيها في نهريين ، كما أدخلت فيها أبواب جديدة كباب (السياسة) ولم يكن لها ترجمة فرنسية لمدة سنتين ، وإن كانت الرسوم قد احتوت على تلك الترجمة ، ومن أبوابها الجديدة أيضا « تلغرافاتنا الحصرية » التي زخرت بها السنة الثامنة ، وهي برقيات من تأليف المترجم له فيها المختار من الشتائم والسخرية ، وسوف نعرض لها في سطور مقبلة .

وقد سار أبو نظارة على نهجه فجددنا حديثا شباثا في

المخاطبة الأولى بين « شهما تلو حسام أفندى ضابط عسكري »
 وقيا فتلو عيا فتلو نومة الضحى أفندى ٠٠ الخ » عن حريق
 الاسكندرية ومذبحتها خاصة ، فرمى فى الحوار الى أن الحديو
 توفيق هو صاحب الجريمة « ٠٠ على الواد الاصيل مستندات
 وشهادات وحجج وأوراق وتلفزافات تثبت لمن اطلع عليها أنه
 هو الامر بمذبحة اسكندرية ، وجميع أهالى لندن ألزموا
 الوزارة الانكليزية بتشكيل مجلس لتحقيق الدعوى ومحاكمته »
 وهو يحمل الحديو وعصبته كل النتائج التى وصلت بمصر
 الى هذا الهوان ، ونشر فى ذلك قصيدة ممتعة نسبها لأحدهم
 نقتطف منها بعض أبياتها ، فهى الى دقة التصوير تجمع معانى
 أدبية لا بأس بها ، بعنوان « القول الوجيز فى دخول
 الانكليز » :

ياراوى الدهر حدث عن أبى العجب
 واندب زمان التصافى يا أخا العرب
 ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا
 واسـأصلتنا يد الأرزاء والكرب
 هبذا العزیز تخلى عن سيادته
 للانكليز ولم يقبض سوى الكذب



كانت شراة نار لم تكن أبدا
 محتاجة فى تلافىها الى نصيب
 لكن حشوا رأسه غثيا فأضررها
 حتى تجاوزت البلوى الى اللبيب
 وبعد ريكته جاها لنصرته
 ليكنهم جرعوه لوعبة الحرب
 جنوا عليه حنو الذئب إذ نظرت
 عيناه شياة تجر الرجل من خطي
 فيخال أن ثيايا الذئب بأسية
 وما درى أنها أنياب من خطيب



مصر الفتات أبو سلطان أسلمها
 وانما أسلم الاسلام بالحب

هم رأسوء على النواب يرشدكم
فكان نائبة من أكبر النواب
وقد أثارت لهيب النار نفوته
فصار أولى بأن يدعى أبا لهيب
نبت يدها على ما جاء من عمل
لم يأت خائن في سالف الحقب



فكم أصابوا بريننا طوع غايتهم
وأغضوا أطرفهم عن كل مرتكب
وكم أهاجوا بزور القول من فتن
وروجوا الكفر في جد وفي لعب
وهكذا مضت القصيدة الممتعة تحكى المصائب والحيانات التي
حدثت ، في صفحتين من أبى نظارة زرقا . وتؤرخ للاحتلال
وأنصاره تاريخا صادقا لا غبار عليه .
ولا يتهاون يعقوب بن صنوع في الحملة على الخديواسماعيل
وولده توفيق ، فقد كان ذلك من أهداف سياسته العامة ، الى
جانب تلك الكراهية العميقة للاحتلال وأصحابه ، وهو في هذه
الكراهية ينفس عن نفسه كمواطن مصرى شريف ، ويمبرأ أيضا
عن السياسة الفرنسية التي كرهت هذا الاحتلال ووقفت له
بالمصايد في كثير من المناسبات حتى تم الاتفاق الودى بعد
ذلك بسنوات . ومن العناوين الطيبة لحملته على اسماعيل
وتوفيق ما نشره في معرض المقارنة بينهما وبين الأمير حليم
وفي هذه المقارنة عرض الكاتب لسيرة اسماعيل في إيطاليا
وما تعرض له من سوء المصير نتيجة اضطرابه في شئون السياسة
وأمره الخاصة التي لا تليق بأمر كبير . . .

ثم لا ينى المواطن الحر عن الدفاع عن القضية المصرية بجميع
الوسائل والطرق ، فيسعى خطيبا يعرضها في مدن فرنسا
وعواصم أوروبا ، ويسجل آراءه في صحيفته ، وهو ينشر
أيضا نحو صفحتين كاملتين عما صنفته « صاحبة السعادة
الحاتون كارتو المحترمة » في هذه القضية وكيف « عقلت مظلما
سياسيا دعت اليه جمعا غفيرا من السيلفات السياسيات مع

بعولهن وأولادهم وبناتهن . وكلفت بعض الرجال السياسيين القاء الخطب في سياسة الدولة البريطانية بمصر - فتولى رئاسة المحفل مستر وود - صاحب جريدة (المورننج بوست) وصار صاحب النحلة معاوناً أول له . وكان هذا الاجتماع ناجحاً وموفقاً ، وتعرض فيه المتكلمون لبربرية حكومتهم التي قضت على استقلال أمة متحفزة وسمحت للفساد أن يستشري فيها دون وازع من ضمير وخلافا لما أثار عن تقاليد الأمة الانجليزية ، الأمر الذي يراه أحرار انجلترا مسببة في تاريخهم ويستوجب منهم السعي عند المسئولين للرجوع عن هذه الطريق وإخلاء مصر من الجنود الانجليز .

ويعقوب لا يقف مجلته من الآن فصاعداً على القضية المصرية وحدها ، بل يعرض لقضايا الشعوب المستعمرة في كل مكان ، وخاصة الشعوب التي تخضع لحكم الانجليز ، وهو يعرض قضاياها ليعتبر مواطنوه ويروا فيها كيف يجالده ويكافح الأحرار في كل مكان ، وقد صدر افتتاحية أحد الأعداد بموضوع عن الهند قدم له بأنه « وردت إلينا من أحد نهباء الهند الرسالة الآتية درجها ، فالمرجو من محبي الوطن والحرية بمصر أن يقرأوها بفاية التأمل ويفهموها كلمة كلمة ، فتظهر لهم خباثة الحكومة الانكليزية وسوء معاملتها مع من يقع تحت يدها ، والعذاب الاليم الذي تذوقه للأمم التي تتسلط عليها هذه الحكومة المشنومة »

فهو في جانب من صحفه يروى لمواطنيه ظلم الانجليز ويصبرهم بسياستهم في داخل البلاد التي يحتلونها ، ثم يبين لهم في جانب آخر العيث الذي يعبثه أعداؤهم بالقضية المصرية في الميدان الدولي ، وكيف يحاولون إخراجها من هذا الميدان لينفردوا بأمور البلاد ، حتى انهم دعوا الى مؤتمر يعقد في لندن سنة ١٨٨٤ ولكنه كما يقول صحفينا « طلع طز فش » وقد أثبتت الأيام صدق ماذهب اليه ، فلم تلق قضية مصر عناية صادقة من الدول الأوروبية ، التي سلمت واحدة بعد أخرى للانجليز بما يريدون .

وهو دائب الكتابة في مجلته ليجاهد مواطنوه ذل الاستعمار ، ويكافحوا أعداءهم الانجليز ، وله في ذلك أكثر من مقال وصورة

ومن أمتها مقالها بعنوان (الأحوال المصرية) وهي قطعة أدبية لا بأس بها ، وقد جاء فيها « .. والنواح على الشبان الأحرار الذين ما أنبتتهم رياض مصر غصونا إلا وقد قطعت عليهم سبل الترقى ومنعوا ماء الهناء وهواء التقدم فلا نمولهم إلا بالذل ولا يميلون إلا ميلة المسكين بعد ذلال الشرف في منارة الأوطان ، والأسف كل الأسف على الشيخ الكبير والطفل الصغير ، فذلك لا يوقر وهذا لا يرحم .. والحسرة على الرجال الذين أفنوا أيامهم في خدمة الحكومة وقصروا أوقاتهم على صالحها وهم اليوم تقيض أعينهم من الحزن إذ لا يجدون ما ينتفون .. أفيقوا أفيقوا يا عاشاق النوم ان معشوقكم هذا عنو لكم .. »

ولما لم يعجبه خنوع مواطنيه كتب يقول « لا أدري هل أنتم صخور صم أو ختم الله على قلوبكم وعلى سمعكم وعلى أبصاركم فأنتم لا تشعرون ؟ هل أنتم مياه راكدة أو أنتم جبال راسخة لو أنتم من دباب سيبريه في أيام الشتاء ؟ هل متم ؟ فان كنتم متم فلا أقل من أن تنتشر روائحكم الكريهة .. ماهذه الحالة ؟ الانكليزي قد ابتلع بلادكم وأفقر أغنياءكم وأذل أعزاكم ودمر بيوتكم وسلب قوتكم وأهلك عساكركم وفرق شملكم .. وكل العالم في جلبة وضوضاء واستخبار واستفهام عن أخباركم وقلوب الأجانب في قساوتها قد تفتتت حزنا عليكم .. ومع كل ذلك أراكم كاشري الأنياب غائري العيون متقلصي الشفاه كأنكم في حانة .. يا أهل مصر ! ماهذا السكوت .. ماهذا الجمود .. والله والله والله .. هذا وقت لو تقاعدتم فيه عن طلب حقكم لمجدكم كل انسان حتى البرابرة والتكارنة والسومالية والسودانيون ولهم الحق بذلك .. »

وهكذا يبكك الكاتب مواطنيه وكان تبيكته يصل أحيانا الى الشستائم فيتحسر قائلا « ما فاضلشي في مصرنا الا الجديان .. »

ولم يعجبه في رجال مصر في ذلك الوقت ، أي في سنة ١٨٨٤ الا شريف باشا ، ذلك الوزير الذي أبى أن يفرط في السودان ، وله موقف مشهور خلد في التاريخ ، ويعتقوب هنا منتصف للناس والتاريخ . فقد كان خصما لشريف باشا في أكثر من مرة ، ولكنه مدحه أيضا أكثر من مرة ، وذلك كلما

وقف الوزير موفها مشرفا ، وكانت آخر المواقف المشرفة مذكورة عنه في أزمة سنة ١٨٨٤ على لسان شريف نفسه وهو يخاطب الحديو بقوله « ٠٠ سعادتك سيد العارفين وتعلم أن رجل اختيار مثلي التي قضيت طول عمرى شريف ما يصحش انى أضيع شرفى على آخر الزمن ٠٠ » ثم يرسم صورة ممتعة لمكانة رئيس الحكومة فى ذلك الوقت بقوله على لسان شريف باشا « أنا اليوم يا أفندم صبح رئيس نظار دولتك العلية أشبه بطرطور لأن لسوء حظ مصرنا الربط والحل فى يد الجماعة » .

ان صحفينا لا ينكر فضلا لأحد ، ويسجل هذا فى اخلاص ، مهما تكن بينه وبين صاحب الفضل من خصومات ، وقد دأب على نشر المديح فى كل من يرعى ذمة وطنه ولو لم يكن مصرياً ، وحسبنا على ذلك دليلاً ثنائوه الجم على لويس صابونجى صاحب النحلة « وهى أشهر من أن تذكر ، وكل مصرى حر بها أخبره » ويعلم ابن صنوع فضل صابونجى على زعماء الثورة العربية « ولولا منشيها - يقصد المجلة - الذى أخلص الجذ وثبت على الكد فى الاستنصار للسيد أحمد عرابى واخوانه وسعى لدى زعماء الحرية ونصره الانسانية للتألب على أهل الفساد لكان عرابى اليوم قد باد « ويمضى متحدثاً عن أنه كان - أى لويس - واسطة خبر بين « مستر بلونت الشهم الهام وبين السيد أحمد عرابى ٠٠ »

وقد نشر هذا تحت رسم لصاحب النحلة وهو من الرسوم القليلة النادرة للأشخاص التى وجدت فى صحفه الأولى مرسومة وسط اطار جميل ، وكذلك نشر صورة للمستر بلونت وتحدث عنه مترجماً لحياته نقلاً عن « جريدة النحلة الصابونجية » فذكر أن خصوم الحرية لمصر ادعوا أنه عيبى للانجليز ، وأنه لم يصدق شيئاً من هذا بعد اطلاعه على مؤلفات بلونت عن الشرق



المستر بلونت فى تاريخ
العرابين تاريخ ٠٠

وفضائله » فإن السيد ويلفريد سكاون بلونت حبيب الأئم
الشرقية ، أما قرينته اللادى عنا : فهي جميلة كحور الجنة ،
ليس فقط بالحسن والجمال ولكن بالفضائل والكمال ، لسانها
بالعربى فصيح ، ولفظها بلغتنا مليح ، حفظت القرآن الشريف ،
ودرست كل شاعر عربى لطيف . . .

وقد نشر صورتها فى عدد تال مادحاسن لها ذاكرا شمائلها
فى تفصيل ، وإن مذكروه يعقوب بن صنوع من ثناء على المشعر
بلنت ، وما أضفاه عليه من تكريم لجدير به حقا عند من يعرف
تاريخ الثورة العربية ، وعند من قرأ عنه فى صحف مصر
أو فى صحف أبى نظارة فى باريس ، فقد ذاد الرجل عن العربيين
وقضيتهم ، ونشر ذلك فى التيمس جريدتهم الكبرى .
وببدأ فى (أبو نظارة زرقاء) تاريخ الحركة المهدية بما نشرته
عنها المجلة من حوادث وبيانات ورسوم ساخرة بالانجليز ومكاتبتهم
كجنود حرب ، ومن أمتع ما نشر فى هذا الباب تلك الأجزاء
التي تعرضت لرجال الانجليز من ضباط الجيش أو من موظفى
الحكومة المصرية المدنيين ، ققرانا زجلا عن (دور الجنرال
جرودن) قال فيه الكاتب .

يا محملا لنجليزية
أم عين زرقا وشعر أصفر
يا خسارة دالصبيه
فى جوزها العسكرى الأحمر
شفتها امبارح يا سيادى
ما كانش حولها انجليز
فقلت لها يا ميليدى
جيف مى آكيس ايفيو بلينز (١)



أنا فى عرضك وإن كيس (٢)
قالت جوديم بلادى قول (٣)

١ - على اعطى قبالة من ففسلك يا ميليدى . .

٢ - معناه قبلة واحدة . .

٣ - معناه لمة لك عليك يسجنون . .

بلا فول بلا شعير
ما تبتغي بديش علي
أنا ابن المهدي الكبير
أحلمى علي شويه



فشفيا المهدي منصور
والجردون في الشفق مكتوم
ثاني يوم جابوه أسير
في مصيده سودانية
أمام المهدي الشهير
مع ضباطه لتجليزية



فاذا فرغ يعقوب بن صنوع من حملته علي جوردن عقب عليها
(بدور علي كليفورد لويذ) وهو وكيل الداخلية الانجليزية وله
تاريخ مشهور عرضنا له في مؤلفنا عن جريدة الاهرام بما
يكفي لشرح سيرته في اخذه لأمور مصر الداخلية وقد جاء في
هذا الزجل .

لو لم يكن باش دجال
ما كان غلامسطلون اختاره
قال جا مصر يصلح لحوال
خربها يخرب دياره
ياما نهب فلاحين
ياما غدر جهادية
ياما ظلم مساكين
ونفى شعبان مصرية
أما ربي فعله عجب
كشف سترة فيان غشمه
وفي شهر شعبان ورجب
أمام الناس مسود وشه
ولم تقف السخرية عند حد ، سواء اتصلت هذه السخرية

بنظام الحكم والادارة في مصر أو في السودان ، ومن ذلك ما نشره تحت عنوان (تلفرافاتنا الخصوصية) وهي برقيات من صناعته وتشبه الامثلة التي كان ينشرها منذ سنتين تحت عنوان (كلام فارغ وكلام ملبان) ومن هذه التلفرافات ما جاء « من القاهرة في ٧ منه » وفيه يقول « سلطان باشا متوجه الى لندن باموريتين احدهما ينظر طريقة لاعفاء المسلمين من ليس البرانيط كأمرهم الذي جرى مفعوله في ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ . - ثانيهما يتعهد للانجليز بتسليم بر مصر كلها ، ومرضاة الاهالي على الله ثم عليه بمبلغ أكثر شوية من الذي كان أخذه عندما سلمهم التل الكبير وكان ذلك عشرة آلاف جنيه . » وتستمر (أبو نظارة زرقا) تؤكد سياستها في نقد أمور الداخل وكشف أستار السياسة الدولية تجاه مصر ، وتشرح مقام المهدي في نفوس مواطنيه المصريين وتحمل على الانجليز والنحس الذي حل بمصر بحلولهم ، وتأتي في ذلك بمشال الكوليرا التي انتشرت في البلاد انتشار النار في الهشيم ثم لايفوت المحرر بين آن وآخر الحملة على اسماعيل في منفاه ، ومن هذا القبيل ما ذكره عنه وعن المجلة التي يصدرها في ايطاليا بقلم ابراهيم بك المويلحي فقال في خطاب مفتوح « ٠٠ طى جوابي هذا يا أبو توفيق تجد مقالات أحد من الخوازيق قطفتها من أعظم جرائيل باريس ولندن وروما وفيينا وبرلين ، أقراهم يا كبدي وابكي على روحك يامسكين ، دول ذموك وهلهلوك وكشفوا سترك وحقيقة أحوالك ، وأخبروا جميع الناس بأن جرنال الاتحاد هو جرنالك ٠٠ » الى آخر ما جاء من تنفيه الحديو وما احتوت عليه صحيفة الاتحاد التي كان يصدرها في الخارج من دعاية فجة تافهة .

وهكذا يختم يعقوب بن صنوع بانقضاء سنة ١٨٨٤ حقبة من سيرة صحفه ، مليئة بالاحداث والعبر ، ويستقبل بعد ذلك بعض الحقب التي بلغت فيها صحفه غايتها من النضج والاستواء ، وسجلت أحداث مصر كبيرها وصغيرها ، وقربت الى الافهام كثيرا من المشاكل والمسائل التي كان يستعصى فهمها ، ويدق هضمها على عامة الناس ، وخاصتهم في بعض الأحيان !

الوطني المصري

وهذه صحيفة أخرى ، من الصحف التي اضطرت الحكومة المصرية الى اصدارها فقد اصدرها حين قرر مجلس النظار مصادرة صحيفته (أبو نظارة زرقا) حتى يتمكن بذلك من اسماع صوته في مصر عن طريق توزيع (الوطني المصري) على قرائه العديدين الذين كانوا يتشوقون الى مجلته ، وينتظرون اعدادها وجلين من مصادرتها في الجمارك المصرية .

والوطني المصري صحيفة تشبه في حجمها (أبو نظارة زرقا) ، ولولا تغير الاسم لظنناها هي بنفسها ، فهي لا تختلف عنها شكلا أو موضوعا ، بيد أنها تميزت عن صحفه الأخرى باللغة الانجليزية التي احتلت منها جزءا واسع النطاق ، وهي ترجمة طيبة لبعض مقالاته المنشورة في الصحيفة باللغة العربية .

وقد نشر المحرر اسم الصحيفة باللغة العربية محاطا بترجمة حرفية لهذا الاسم باللغة الانجليزية هذا الى أن جميع التفاصيل الخاصة بالمجلة كاسم صاحبها ونشرها وقيمة الاشتراك في مصر وغير مصر من بلاد العالم وتاريخ الصدور وما الى ذلك قد نشر باللغة الانجليزية على رأس العديدين النادرين اللذين صنعوا منها في باريس .

وقد ذكر المحرر انه سيصدر منها اثني عشر عددا ، والصحيح أنه لم يصدر الا عديدين فقط حتى رتب أموره مع معاونيه في القاهرة ، فأعاد اصدار (أبو نظارة زرقا) في الشهر التالي لصدور الوطني المصري ، ونقصد بالأمور التي رتبها مع معاونيه هي التغلب على عقبات ادخال (أبو نظارة زرقا) الى مصر دون أن تحجز في جماركها وذلك بطرقه المختلفة التي شرحنا طرفا منها في فصل سابق .

وقد صدر العدد الأول من (الوطني المصري) في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ أى بعد مضي سنة على الاحتلال الانجليزي لمصر ، وقد كان أبو نظارة يحسن لو استمر في اصدار صحيفته ومعها ترجمة انجليزية ، أو اصدار صحفه الأخرى ومعها تلك

الترجمة حتى يمكن للانجليز في انجلترا أو في مصر أن يقرؤا هذا الصوت البعيد ، ويتبينوا منه وجهة نظر الأحرار ، ويحسوا - وخاصة الانجليز المحليين - خطر صحيفته إذا قرأها المسؤولون في دوننج ستريت ، ولكنه يبدو أن ثقته في الفرنسيين وإيمانه بأنهم سيقفون الى جانب المصريين جعل المحرر يعنى عناية خاصة بنشر ترجمة لمقالاته باللغة الفرنسية دون الانجليزية ، وحتى العديدين اللذين صدرا من الوطنى المصرى لم يخل أحدهما من ترجمة فرنسية ، وان اقتصرت الترجمة على الصور والرسوم .

وقد صدرت (الوطنى المصرى) فى ست صفحات ، على غير الماثور عن صحفه التى كانت تصدر الى ذلك الوقت فى أربع صفحات فقط ، ولوحظ على هذين العديدين النادرين أن المعارك التى كانت دائرة فى السودان حينئذ كان لها المكان المرموق فيهما ، الى جانب بعض الرسائل التى وردت للمحررين والجمعية الوطنية السرية بالقاهرة الى أبى نظارة بباريس .

وفى هذه الرسائل يبدو أن وجهة نظرنا القائلة بأنه كان من صالح البلاد نشر ترجمة انجليزية فى صحفه لما كان ينشره باللغة العربية من موضوعات ، قد أحسها مواطنونا فى ذلك الوقت ، اذ جاء من الجمعية الوطنية بعد شرح ما أصاب مصر من سوء « ٠٠ » انما مصائبنا دى المهولة ، عند أهالى أوروبا بالكلية مجهولة ، فيجب عليك نشر جريدة سياسية تترجم أهم ما فيها الى اللغة الانكليزية ، والقصد فى الترجمة هو عرض حال وطننا العزيز ، على الأمة البريطانية لأن لليوم موجود بين الانكليز ، كثير من محبى الانسانية والانصاف كما كنا نعهد فيهم من قديم الزمان ، فاذا سمعوا صراخ مصر ووقفوا على سوء حال السكان ، بادروا الى اصلاح ما فسد فريق منهم اما جهلا واما تعمدًا ونحن نبلغ القصد والمراد ، وتعود لنا الحكومة الوطنية الى حرماننا منها الواد » .

ويكتب أبو نظارة حاشية على ما جاءه من الجمعية الوطنية السرية ، يقول فيها « أنا مستعد لحمة الجمعية الوطنية المصرية ونشر جرنالها ودرج جميع مراسلاتها فيه ، فقط أرجو بأن كاتبى المقالات لا يمدحونى . مثل ما فعلوا فى الجواب المحرر

اعلاه لاثني لسبع أهلا لذلك ، وكلما فعلته وسأفعله لاصلاح
وطنى فهو فرضي على كل مصري ..

وفي رأيي أن أحدا لم يكتب له في هذا الموضوع ، وانما هو
تخيل أنه قد تلقى هذه الرسالة وغيرها من الرسائل ليمبرها
عما يعتلج في نفسه ويدور في رأسه من أفكار وآراء ، وهي
طبيعة الممثل فيه ، وله في ذلك أكثر من مثال لاحظناه في
صفحة الكنار ، وقد كانت فكرة ترجمة ماكتبه باللغة العربية
الى اللغة الانجليزية فكرته هو ، وليست فكرة جاءت عبر البحار
كما يقول ، وهي فكرة صائبة آمن بها مصطفى كامل وغيره
فيما بعد فنشروا صحفا باللغة الانجليزية ليتبين الانجليز
قضايانا المعروضة بصدق وأمانة .

وهكذا صدر العددان النادران فقطعا على (أبو نظارة زرقا)
سيرتها قليلا ، اذ جاء العدد الأول من الوطنى المصرى بصد
صدور العدد الثانى عشر منها ثم جاء العدد الثانى بعد ظهور
العدد الثالث عشر ، وهما على أى حال لايعنيان أن يعقوب بن
صنوع اعتمد عليهما في ابلاغ رسالته سواء للمصريين أو
للانجليز ، بل هما في اعتقادى من صحف « الضرورة » التى
نشرها المترجم له حتى يتغلب على الصعاب التى اعترضت
سبيل صحيفته الأصلية ، فقد كان الاحتلال الانجليزى قاسيا
على الصحف فى سنواته الأولى ، فصادر الصحف المحلية
الوطنية والأفاها ، كما أصدر مجلس النظار فى سنتى ١٨٨٣ ،
١٨٨٤ أكثر من قرار يحرم دخول جرائد بالذات الى مصر ،
وفي مقدمتها صحف يعقوب والعروة الوثقى التى كان يحرقها
الافغانى ومحمد عبده فى سنة ١٨٨٤ ويصدرانها فى
باريس ..

فاذا أصدر المترجم له مجلته (الوطنى المصرى) الى جانب
(أبو نظارة زرقا) فانما يصدرها من باب الحيلة وعلاج النقص
اذا حدث ذلك حتى اذا صودرت صحيفته الكبرى ظهرت مكانها
مجلته الأخرى وحلت عند قرائه محل صحيفته الأصلية ،
وتمكن بذلك من أداء رسالته على طريقته الفريدة التى اتبعها
ثلاثين عاما دون توقف أو استرخاء ..

أبوظظارة مصر للمصريين

هى فى ذمة المؤرخ أعظم مدارج النضج والاستواء فى مجلات يعقوب بن صنوع ، من حيث الشكل الذى صدرت فيه صحفه ، اذ هى أكبر طولا وعرضا ، وأجمل صورة ورسم ، وأدق املاء وخطا ، ومن حيث الموضوع وتنوعه ، والأسلوب وصحته ، والفكرة وحرارتها ٠٠ فمنذ سنة ١٨٨٥ سنشاهد دارا للنشر أو شيئا يشبه دار النشر ، مصدره انتظام حياة الكاتب المادية واستقراره فى عاصمة النور ، وشهرته بين الفرنسيين كمواطن لاجئ حر شريف ٠٠

صدر العدد الأول من (أبو نظارة - مصر للمصريين) فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٥ وكان آخر عدد صدر منها فى سنة ١٩١٠ أى أن يعقوب بن صنوع هضى يصدر مجلته نحو ست وعشرين سنة ، تقلبت فيها المجلة فبلغت فترة أوج العز والكمال ، وانخفضت فترات فأصابها الهوان فى شكلها وموضوعها ، وهى فى جل أعدادها خصصت جزءا منها لنشر الموضوعات باللغة الفرنسية ، فكانت الصفحتان الأولى والرابعة وقفا على تلك اللغة ، وكانت اللغة الفرنسية تطفى أحيانا على اللغة العربية فتملا أكثر المجلة وذلك « لتفهيم الأوروبين ما صارت فيه مصرنا الآن من النشيط والتيقظ وعدم قبولها الغفلة ، كذا اجتهد أهلها فى حزم الرأي وحسن المسلك واتحاد الكلمة ٠٠ » ومن الأمثلة على ذلك أيضا أن المجلة فى إحدى السنوات كانت تنشر ثلاثة أرباعها باللغة الفرنسية .

وقد تغير رأس المجلة عدة سنوات ، فظهرت فى سنة ١٨٨٥ بالعنوان الذى ذكرناه ، ثم تغير رأسها فى سنة ١٨٨٦ فأصبح (أبو نظارة - ستمدى لك الأيام ما كنت جاهلا ٠٠ ويأتيك بالأخبار من لم تزود) ثم عاد رأسها الى ما كان عليه من قبل فى سنة ١٨٨٧ ، ثم تغير تغيرا خفيفا فى سنة ١٨٩١ ، ثم تغير تغيرا ملحوظا فى سنة ١٨٩٣ ، ثم أصابها التغير أيضا

في سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٧ ، وهذا التغير الذي شمل رموس صحيفته لم يغير من شكلها أو طابعها أو حجمها ، بل مضت على سجيبتها حتى ليفوت القارئ العادي أن يلاحظ هذا الذي سجلناه هنا من ألوان التغير المذكور .

والجديد الخطير في شكل المجلة وروعتها ، هذه الصور الملونة الملونة عدة ألوان ، وهي تنافس ما نراه اليوم من الصور الملونة ولا تقل عنها دقة وإخراجا ، ولم يستطع المترجم له أن يستمر في نشر تلك الصور البديعة في جميع السنوات ، فاختفت فترة طويلة من صحيفته ، ولم تعد إليها إلا بعد سبع سنوات على أن هذا لا ينفي وجود صوره ورسومه الأخرى ذات اللون الواحد ، في الصفحة الأولى أو الصفحة الرابعة ، وإن كان بعض الرسوم قد نشر في قلب المجلة في القليل النادر وقد صدرت الصحيفة في ورق الصحف الجيد وإن كانت بعض الأعداد قد طبعت على ورق أبيض جميل .

وقد قام يعقوب بن صنوع بكتابة صحيفته أحيانا وطبعها على الحجر ، وكان خطه من أقبح الخطوط التي مرت بتاريخ مجلاته ، نظرا لضعف بصره الذي حال بينه وبين تجويد الخط أو كتابة الكلمات دون خطأ أو اضطراب حتى أننا نكاد نجزم بأن قبح الأعداد مصدره خطه الرديء ، وقد يستمر صدور الأعداد سنة كاملة على هذه الحالة ، ثم يتحسن بعض الشيء في سنة أخرى ويبلغ أقصى الجمال في معظم السنوات وقد رأينا مجلته فترة ما مطبوعة بحروف المطبعة ، فجاءت آية من آيات النشر والإخراج ، إلا أنه عاد إلى خط اليد بعد نقل المطبعة من مكان إلى آخر واعتذر عن ذلك ، ووعده بنشر الصحيفة بحروف مطبعية غير أنه لم يف بوعده .

ولم يكن صدور المجلة منتظما ، فقد كان العدد يصدر مرة كل شهر ، وأحيانا يصدر مرة كل شهر ونصف شهر ، واستمر يصدرها مرة كل شهر منذ ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٠ ، ثم كتب يعقوب يقول في ورقة خاصة ملحقة بالعدد الصادر في ٢١ يناير سنة ١٨٩١ : « قد ازداد رغائي مطالعي جرنالي لنمو أهميته ، واتسعت دائرة الاشتراك فيه ولم تختص بمصر وسورية وتونس والجزائر والمغرب بل الهند والزنجبار

وجزائر القمور وغيرها من البلاد الشرقية ، والذي يؤكد لنا ذات أهمية الجرنال ونفوذه وانتشاره في وادي النيل مع شدة الحرس والمراقبين لمنعه ٠٠ وبناء على طلب القراء جعلنا صدوره مرتين في الشهر عوضا عن مرة واحدة ٠٠ ، غير أن هذا الوعد المسجل لم ينفذ ، بل ان مجلته مضت تصدر في بعض السنوات أربع مرات فقط ، وان كان يصدر بجانبها وفي نفس الحجم مجلات مختلفة لم يحن الوقت بعد للتحديث عنها .

وقد ذكرنا أن يعقوب بن صنوع جعل مكانا ملحوظا لترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة العربية ، وكان ينشر موضوعات كاملة بتلك اللغة لاعلاقة لها بالمنشور باللغة العربية ، غير أن هناك لغات أجنبية أخرى نافست اللغة الفرنسية في كثير من الأعداد وخاصة اللغة التركية التي كانت تبرز بين آن وآخر بمناسبة « المولد السلطاني الحميدى » ، ثم احتفظت مجلاته جميعا في أكثر السنوات بالتاريخ الهجرى يتصدر رأس أعدادها كما كانت الصفحة الأخيرة مكانا للتاريخ الفرنجى المعادل للتاريخ العربى ، غير أنه كان يغفل أحيانا كثيرة ذكر التاريخ الميلادى .

بقى سؤالان قد يشغلان بال قارىء هذا الكتاب ، أولهما عن مقدار النسخ التي كان يطبعها من كل عدد ، وثانيهما عن الأسباب التي عطلت المجلة عن الصدور أكثر من مرة في الشهر ؟

ويجيب أبو نظارة بمناسبة بلوغ صفحه العيد الفضى عن السؤال الأول بقوله « ٠٠ طبع كل مرة من كل عدد من الأعداد العادية ما يزيد عن عشرة آلاف نسخة أما الأعداد ذات الأهمية مثل التي تضمنت عيد الجلوس والمولد السلطاني فقد طبع كل عدد منها ما ينوف عن الخمسة وعشرين ألف نسخة ، وبجملته تعالى فلقد طافت مشارق الأرض ومغاربها ، وسلت الحرين على همه وملأت قلب المظلوم أملا بزوال ناف العبودية من على أكتافه ٠٠ » ثم نجد الإجابة على السؤال الثانى فى قوله أنه تقدم فى السن وضعف بصره وكثرت أشغاله « بالتعليم والترجمة » فضلا عن اشتغاله بالقاء الخطب فى المحافل والمآتب السياسية والعلمية ، كل ذلك لم يمكنه من إصدار مجلته فى

بعض الأحيان أكثر من مرة في الشهر .

ويعتبر يعقوب بن صنوع صاحب الجريدة وكاتبها وناشرها ،
وان قام بكتابة خطها كثيرون من الشرقيين ، ووضع رسومها
أكثر من رسام ، غير أن موضوعاتها جميعا من قلمه ، سواء
كانت باللغة العربية أو بآية لغة أجنبية ، فقد كان الرجل يجيد
كتابة أكثر من عشر لغات ، غير أننا لاحظنا بين آن وآخر كتابات
بقلم آخرين أفصحوا عن أسمائهم أفصاحا ملحوظا ، وداوموا
على نشر المقالات عددا بعد عدد ، حتى ليخيل إلينا أنهم من
محرري المجلة الأصليين ، وفي مقسمة هؤلاء القس لويس
صابونجي صاحب مجلة النحلة التي تصدر في لندن .



أما سياسة المترجم له في صحفه جميعا ، فهي هي سياسته
التي عرفناها له من قبل حتى سنة ١٨٨٤ ، ولا يزال اسماعيل
وتوفيق ، وخاصة الأخير موضع سخطه وسخريته ، ومن ذلك
ما نشره تحت عنوان (دور) ولا تنصب السخرية على توفيق .
وحده بل تشمل المصريين الذين يرضون الذل ولا يرفضونه ،
استمع اليه يقول :

مستر توفيق ابن اسماعيل	ماله رفيق في وادي النيل
الناس سايوه لكونه خان	مصر وأبوه حق السلطان
باع للأجنبي كل الأصحاب	أهبل وغبي غشاش كذاب



في مصر رجال يخلصوهم من الاندال اللي باعوهم
غير أنه يستعرض تهاون مواطنيه في ظروف سابقة ، ويتذكر
مواقفهم الضعيفة في الشدائد والمحن ، فيعلق على ضعفهم
وخورهم في عتف بقوله في فقرة من فقرات هذا الدور :

لا . دول بالهم توفيق يسوقهم

ده وحل مش دم اللي في عروقهم



وتأخذ القضية السودانية وأبطالها مكان الصدارة في صحيفته

ابن صنوع سنوات متصله ، فنجد تحية رائعة من قلم صاحب النحلة عن (عثمان دقمة بطل السودان) استغرقت الصفحة الأولى ، وفيها يدافع صابونجي عن الثائر ويحمل على الانجليز « اذا ذب المرء عن دينه وعرضه ووطنه كان أشد الناس ورعا وشرفا ومروءة فالبطل الهمام عثمان دقمة الذي أضحي على الانكليز أشد نقمة ، قد تفرد بين قواد السودانيين بالبسالة والغربة على حرية وطنه وقومه ، فلا لوم عليه اذا قاوم الانكليز والاجانب الذين حاولوا غزو بلاد نشأ فيها ، ولذلك لاندرى باى حق يصفه الانكليز بصفة عاص » ثم يمضى مادحا له ساخرا من الانكليز وجيشهم المدير فى السودان .

ويظهر أبو نظارة شماتته بهزيمة الجنود الانجليز فى السودان تحت عنوان (برج ايفيل) وهو حديث عن هذا البرج ومهندسه فيزعم انه كتب مقالا من أعلى البرج ذكر فيه أنه يرى وادى النيل « من السودان الى اسكندرية » . ويرى اسود السودان قد أخذوا الانكليز على أسنة رماحهم كأنهم كباب من لحم خنزير قد سيخ فى سيخ مسقى ببول الحمير ، وهم على صورة الجراد ، ووجه الشبه أن الجراد لم ينزل بواد الاخرية . . . » وهكذا ينتقل الى مدح شجاعة مواطنينا السودانيين ، مؤيدا كفاحهم راجيا نصرهم ، فهو يعتبر نصرهم نصرا لمصر أيضا .

ويتحدث المترجم له عن فتح السودان ، ويرى ذلك خطرا على كيان مصر نفسها وافتثا على حقوق السلطان ، ووسيلة لاطالة بقاء الانجليز فى مصر ، ويرتب على هذا الموضوع آراء لا بأس من تسجيل بعضها ، فيقول ان الاحتلال « سابق قدامه عساكرنا المصرية ، لمحاربة اخوانهم السودانية ، ومصاريف السفر من خزنتنا اللى مفاتيحها بيد الانجليز ، فحزنت على مصائب وطنى العزيز . . . وكيف الانجليز يشهروا الحرب على السودان ، من غير ما يستأذنوا مولانا السلطان ، ياهل ترى ديارنا المصرية ماهيش قسمن من الممالك العثمانية ؟ . . . عمرى ما أصدق أن سمو خديويتنا من الحرب دى مسرور ، لأن جنابه سيد العارفين ، ويعرف أن محاربة السودانيين ، نتيجتها مشومة على وادينا ، ومفيلة لأعادينا ، لأنهم اذا انتصروا على

السيد عبد الله العطايشي - يقصد التعايشي - ودقة عثمان - يقصد عثمان دقنه - يتسلطون هم ذاتهم على السودان ، واذا انقلبوا مثل أول مرة يتخذوا كسرتهم حجة جديدة ، لاطالة اقامتهم في ديارنا السعيدة ؟ لا . لا . ديارنا حزينة من يوم مادخلوها ، فتوا رجالها وأفقروها . . الى آخر هذا المقال الممتع الذي شرح جزءا من سيرة فتح الانجليز للسودان .

ويعبت الانجليز بقبر المهدي ، ويسوء ذلك السودانيين والمصريين ، ويرى أبو نظارة أن يكشف للعالم ما ارتكبه المستعمرون من وذر ، فنشر تحت عنوان (وحشية الانكليز وعدم مرحمتهم) قائلا « ولابد بلفكم يا خلان ، مافعله من القساوة الانكليشمان ، بمدينة أم درمان ، بجثة السيد احمد محمد بطل السودان . . الى متى تحلم على الانجليز يارحمن ، دول تآبروا على المظالم ، وداوموا على الطغيان . . أف من الانكليز ياماهم وحوش ، ياسلام عليهم متى قدروا مايعفوش . . نراهم اليوم يفتحوا مقابر الابطال ، ويخرجوا الميت ويفعلوا به أشنع الافعال ، وفعلهم ده المشوم أجروه في المهدي المرحوم ، أخرجوه من قبره وأمام أهله وناسه ، بيدهم النجسة قطعوا راسه ، وأعطوها لابن أخي غوردون الجنرال الحسيس ، اللي في عهد المهدي مات في أم درمان فطيس ، وفرقوا أصابعه بينهم ورموا ماتبقى من جسمه الطاهر في بحر النيل . . » ويكاد هذا العدد يكون وقفا على فعلة الانجليز وتصويرا لبغيهم ، باللغتين العربية والفرنسية وقد شرح هذا كله بطريقته الطريفة وأسلوبه العامي المسجوع ، ورسم له صورا بديعة تحكى المقول في وضوح يغنى عن الشرح الطويل .

وان ابن صنوع لا يحمل على الانجليز فيما يبنى مصر والمصريين من شئونها المدنية أو يحمل عليهم فيما صنعوه في السودان من وحشية لم تراع حرمة الموتى ، بل يحمل عليهم ويسخر منهم كلما جد في حياة الانجليز جديد ، فتجد أكثر من مقال وصورة ورسم عما يضادفه الانجليز في حريهم في الترتسفال، وهو يشرح جهاد أصحاب البلاد ويسجل هزائم المستعمرين، ويطالب مواطنيه بأن ينتهزوا الفرص ويقوموا قومة رجل واحد،

ويفعلوا بالانجليز ما فعله اخوانهم المجاهدون في جنوب أفريقيا .

ومن روائع البحوث التي عرض لها يعقوب بن صنوع شئون الحرب بين اليابان والروس في أوائل القرن العشرين ، فقد حكى لنا في تفصيل موضوع تلك الحرب وأسبابها واحتمالاتها ، ولم يفوت عددا دون أن ينشر من أخبارها ما اعتسدت نشره الصحف الأخرى ، وزاد عليها بشرح الظروف وتفصيل الملابسات التي تحيط بالمحاربين ، وبين قدر العلم ومقامه في توجيه تلك الحرب ، منددا بتأخر الروس مبشرا بتقدم اليابانيين ، وقصاري القول انه قرأ ودرس عن تلك الحرب ما هبأ لصحيفته أن تسجل من الآراء والبحوث خير ما سجلته الصحف المعاصرة في هذا الموضوع الخطير .



جنازة جدة توفيق ..

وفي مقدمة المشيعين .. الثران ! ..

وسوف نقرا في (أبي نظارة) أمورا تكاد تكون خاصة لاعلاقة لها بالشئون السياسية ، ومنها ذكره لوفاة جدة توفيق ووالدة اسماعيل وتعليقه على جنازتها ساخرا بالكلام والرسوم ومنها حياته التي لا يفقل عن ذكرها فيما روى عن الناس من قصص وحكايات ، وانه ليحدثنا عن تاريخه حديثا ممتعا شائقا لا يخرج عما نشرناه في فصول سابقة غير أنه يخشى أن ينساه مواطنوه اذا مات فلا يكون لجهاذه أو لتاريخه نصيب بين الأحرار ! وما نظنه بعد أن ترجمنا له هذه الترجمة - على

الأوروبية ، وكلها جدعان طراف وصبيان لطاف ، وناسي تخدم المحتلين ، ودا اللي زاد في البله طين ، يحكموا من غير ما يفهموا ، ويفهموا من غير ما يحكموا ، أشسباح بلا أرواح ٠٠ ، ثم يختم سخريته اللاذعة بنقد المحتل في طرائق نظره الى حرية الصحافة ، وقد جاء ذلك في زجل طويل استغرق نصف صفحة كاملة .

وينتهز يعقوب بن صنوع الاحتفال بالعيد الستيني لولاية فكتوريا شئون الملك في بريطانيا ، فيرفع اليها خطابا مفتوحا ينقل فقرات من المقدمة التي قدم بها هذا الكتاب بعنوان (اسحبي عساكرك من مصر تصبحي فريدة العصر) ، وفيها يقول « هذا موضوع مكتوبى لجلالة فيكتورية ملكة الانجليز ، اللي جرادها الأحمر بيتلف زرع وطننا العزيز ، ربنا ينجينا عن قريب من شرهم ، ويسلط عليهم زوبعة قوية تطيرهم لبرهم ، لانهم اذا مانكشوحوش من هنا لسنة من وادينا ، مين يعرف ايش يجرى فينا ، نموت من الجوع لان الجراد في الزيادة في الفيضان والبلاد ، خلونا من الجراد الأحمر وسيرته الردية ، احنا في مكتوبى للحضرة البريطانية ، اللي اليوم ملوك الدنيا يتهنيا ، على الستين سنة اللي بقى لها متسلطنة فيها ، نقشت لها المكتوب ده بلسانها لسان الوز ، وقلت لها ان كان يدك في الفخر والعز ، والذكر الطيب بعد العمر الطويل ، اسحبي عساكرك ياستى من وادى النيل ، انما الكلام دا دخلته لها في قالب لطيف ، بنفس سياسى ولسان ظريف ، لاشك انها لما تقراه تنسر ، انما ما اطنش انها تأمر بسحب عساكرها من البر ، تيقنوا يا أخوانى أن العساكر الانكليزية ما ينجلوش عن مصر الا بالقوة الجبرية ، دول ما يجوش بالمعروف ، ما ينفعش معهم الا المتلوف ، ما ألن مسيرتهم عن الموضوع بتبعدنا ، ربنا يقطع جرتهم ومن ظلمهم ينجدنا ، المكتوب المذكور ترجمته بالفرنساوى ، ودرجته هنا حتى يقرأه ويفهمه كل أوروباوى ، وتنقله عنى كل الجرائد الافرنجية ، لما فيه من اهم الامور السياسية ٠٠ »

وهكذا لا يفوت أبو نظارة مقالا الا ويهاجم الانجليز ويتخير لهم ألوان الشتائم وأقبح الأوصاف كأعداء للوطن لا ينبغي أن يتهاون أحد في خصامهم .

وقد يلاحظ المطلع على مجلات أبى نظارة ، أن صاحبها ينصرف

فيحاة عن شئون مصر حتى ليخيل إلنا أن السلطات المصرية أو البريطانية قد استطاعت التغلب على أريحيته واشترته فيمن اشترتهم من الكتاب والصحفيين ، وهذا نادر قليل في صحفه الكثار ، إذ أن انصرافه عن شئون مصر لم يحدث قط الا في سنة ١٩٠٠ حيث شغلت صحيفة (أبو نظارة) بأمرين ، الأمر الأول وهو الأهم ، معرض باريس ، فقد كانت سجلا لهذا المعرض بصورها ورسومها ومقالاتها المفسرة الشارحة للمعرض وما احتوى عليه من أشياء ، المينة الاغراض التي يلتبسها ، وقدره في حياة الشعب الفرنسي ، واعلانه عن حضارة ذلك الشعب العتيذ ، والأمر الثاني يتصل بحرب الترנסفال ، وفي غضون الكلام عن تلك الحرب أشار الكاتب الى مصر في بعض الأحيان .

ولم يصب ابن صنوع بحرج قدر ما أصيب بالحرج نتيجة عقد الاتفاق الودى بين الانجليز والفرنسيين سنة ١٩٠٤ ، فقد أغفل فترة التحدث في هذا الموضوع ، ثم طلع علينا في أحد أعداد سنة ١٩٠٥ بحديث غريب ، أوله يبدو فيه الحرج واضحا والتخريج للحالة غير مفهوم ، فقد انتزع من الاتفاق أملا لم يره أحد ولم يؤمن به انسان « ماذا ينتج لوطننا العزيز من اتفاق فرنسنا والانجليز ، هذا سؤال اخواني المصريين ، سؤال ما يعلم به الا رب العالمين ، انما أنا كل ما افكر فيه ياسادة ، أقول المولى قادر على تبديل الذل بالحرية والسعادة ، ويمكن ان الاتفاق ده اللي زاد فى نفوذ الانجليز وفى سطوتهم على وطننسنا العزيز ، ينتهى بانجلاهم عن البر وتمود لنا مصر وتفتنطن وتنبسط وننسر ، ربنا على كل شىء قدير ، وعلى السيد ينصر الاسير ، قلبى يحدثنى بأن اتفاق الدولتين علينا سعيد ، ونرى مصر خالية من الحمر فى عهد مولانا عبد الحميد » .

وهذا كلام أقل ما يقال فيه انه فارغ ، اضطر الكاتب الى نشره ليتخلص من الحرج الذى أصابه كمواطن مصرى موضع عطف الفرنسيين ، فإن التاريخ قد كذب كل ما ذهب اليه شعوره واحساسه ، بل ان منطق الاتفاق يعنى أنه تثببت للاحتلال تأكيد له ، وليس اتفاقا سعيدا كما حدثه قلبه أن من شأنه أن يهدد خروج الحمر من وادى النيل ، وقد عقب المترجم له على

هذه المقدمة برواية تتحدث عن الاتفاق، كان فيها مواليا للفرنسيين وخصما شديدا للانجليز ، غير أنها لاتعبر عن الواقع ، والواقع كان يكذب الرواية ومقدمتها ولا يسجل شيئا من حقيقة الحال ، والحال كان أسوأ من أن يخرج به بن صنوع هذا التخريج الغريب ! غير أن يعقوبا لم يخفف قط من معارضته للاحتلال وأذنا به سواء قبل الاتفاق أو بعده فقد حمل حملة شعواء على عالم ديني من أئمة الاسلام في مصر ، كتب ببراعة السيال رسالة لم تزل محفوظة عند بعض الوطنيين تذكارا لمروق ذلك الامام عن واجباته الدينية والوطنية ، فقد دعا الشيخ الى مهادنة الانجليز والاستفادة من وجودهم في مصر لأن نظامهم « خفيف وظلهم لطيف وحكمهم يدر الحبر ، ولم يعرب لنا حفظه المولى عما نتج لاهالي تلك المستعمرات وفي مقدمتها الهند التي مر عليها أكثر من قرن وهي مستظلة بالعلم البريطاني ، من الفوائد الخصوصية الوطنية حتى تحمل رسالته المذكورة على أيدي الاحترام والاعتبار والامتنان ، وتتخذ قوله صادرا عن نزاهة وصديق في الايمان ، وولاء واخلاص في محبة الاوطان ، والا فيكون كلامه كواو عمرو ، يكتبها ولا يلفظها القراء ، ورسالته لاملح لها من الاعراب بين العلماء والادباء » .

ثم يعرض يعقوب بن صنوع لمشاكل البلاد الكبرى في أسلوبه العامي المأثور فنجد بحثا طريفة في مشكلة العقبة تحت عنوان (الأسد والتمر) ينشر المقال ويرسم له رسوما ممتعة تصور حقيقة الحال ، ويقف فيه الى جانب السلطان في ثقة واطمئنان الى قدرته على حل المشاكل كما أشار في موضع آخر الى الموقف الكريم الذي تقفه منا فرنسا وألمانيا وروسيا وذلك برسم بديع يبين ابليس يحمل انجليزين الى جهنم لسوء معاملة بريطانيا لنا .

ولا نريد أن نطيل في تاريخ ماتضمنته جريدة (أبو نظارة) وانما نسجل هنا طريقة من طرائفه التي تدل على بعد نظره ، بعد أن بينا قصر هذا النظر في الاتفاق الودي ، انه يختلف اختلافا عميقا مع كافة المصريين الذين هزهم الفرع باقالة اللورد كرومر ، ان المصريين يعتبرون تلك الاقالة نصرا مبينا لهم وللحزب الوطني الذي يرأسه مصطفى كامل ، غير أن ابن صنوع

يتوجس خيفة من ذلك الحديث ، وينصح بالتريث تحت عنوان
(ماتفرحوش لمن يروح لما تشوفوا من يحيى) فيقول « .. تأملوا
فى المثل ده يا كرام ، لأن له محل شاهد فى هذه الأيام ،
بمناسبة استعفاء اللورد كرومر وانجلاه عن وادينا ، بعدما عمل
كيفية ربع قرن فىنا ، ودخول السار غرست فى مكانه ، وهو
من أوفى أصدقاء وأعز أخوانه ، بقى ماتفرحوش فى استعفاء
اللورد كرومر وارتحاله ، لما تشوفوا غرست خليفته وتعاملوا
فى أعماله .. »

ويقص أبو نظارة على مواطنيه نادرة من تاريخ الرومان فيها
الحكمة والبيان الصحيح ، وفيها تفسير جميل لهذا المثل الذى
يقوله دائما عامة المصريين ، فصاحبنا ينقل اليهم أنه كان هناك
« ظالم خاين غدار ، طلع ذات يوم للحرب ومعه جيش جرار ،
فراى عبوز شمطاء زى أم المستر بول ، طالعة تجرى وراءه
تصيح وتقول ، ربنا ينصرك ياملك الزمان ، وتعود سالم غانم
للاوطان ، ففرها الملك ودعاها فهرولت نحوه وهى تصيح
وتقول لبيك أنا جارية بين يديك ، فقال لها كيف تدعى لى
بالفوز والظفر على الأعادى ، وأنا قتلت أخوتك وزوجك وأولادك ،
وظلمت أهل بلادى . »

فقال له المرأة : أبوك كان ظالم وجبار ، وكنا كلنا نتمنى
له الموت طول الليل والنهار ، فربنا قبل دعانا ، ومن مخالفة
نجانا ، فمات وأنت خلفته فى الملك على الرومان ، فنراك فقتته
فى الجور والظلم والعدوان ، فلذلك نطلب لك العودة بالسلامة
من الجهاد لحوفنا أن مت يطلع خليفتك أزرت منك فى الحباثة
والرداوة والاستبداد . »

ثم يقول الكاتب لمواطنيه « فعلى شان كدا أنا ما أفرحشى فى
الرايح ، قبلما أرى الجاى وأشوف أن كان يقبل النصايح ،
وبعامل أبناء مصر والسودان ، باللطف والاحسان ، وينسينا
حادثة دنشواى ، اللى حرقت القلوب ، واستعادت بالله من
سمعتها كل الشعوب .. »

لقد كان أبو نظاره يحكى لنا الحكمة فى كثير من أقواله
وملحه ونكاته ، ولعل حكايته هذه من أمتع ما تضمنته صحفه
المختلفة ، وهو دائب التحذير لمن يحسن الظن بالعدو ، دائب

التأييد لمن يسعى لخدمة وطنه ، وإن استقبله لإعلان الدستور في تركيا ، وتحتيته لأعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، مثل طيب علي اقتناصه الفرص في تمجيد الأحداث الكبيرة وأصحابها ، سواء كان ذلك في تركيا أو في أى بلد آخر حتى يمكن أن يأخذ منه المصريون العبرة فيعتبروا ويروا المثل فيحتذوه .

ويبدو أن الحماسة التي كانت تغلب على عواطف الكاتب في السنوات الأولى هدأت بعض الشيء حين بلغت صحفه الثلاثين من عمرها ، ولعل للسن والأمراض دخلا في ذلك . وقد أشار هو منذ سنة ١٩٠٦ بأنه لم يعد قادرا على الكفاح كما عود قراءه ، غير أنه يعد مواظبه بأن يصدر صحيفة فرنسية في باريس تكون لسان الوطن في الخارج ، وإن أعجزته السن والموارء عن الاستمرار في إصدارها حين تحققت أمنيته ، إلا أنه لم يكف قط عن التلميح ، ثم التصريح بأعترافه بإغلاق صحفه ، حتى حلت سنة ١٩١٠ وهي السنة التي مرض فيها ولزم فراشه حتى مات سنة ١٩١٢ .

وإنه منذ مطلع القرن العشرين ، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيرا ما اضطر الى تأخير إصدار بعض الأعداد لأسباب التمسها ، وما أكثر ما التمس من أسباب ، كما أن الأخطاء المطبعية أو الخطية كانت انذارا بقرب النهاية وإن جالء الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات .

ومنها أنه أصبح «اختياره» ونظره ضعف ، ثم إن بلاده وبلاد الشرق عامة قد قامت فيها نهضة صحفية ولا محل لصحيفته بين تلك الصحف ، وهذه حقيقة سجلها وهو يختم نشاطه الصحفي العظيم .

وإنه منذ مطلع القرن العشرين ، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيرا ما اضطر الى تأخير إصدار بعض الأعداد لأسباب التمسها ، وما أكثر ما التمس من أسباب كما أن الأخطاء المطبعية أو الخطية كانت انذارا بقرب النهاية وإن جالء الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات .

التودد

أصدر يعقوب بن صنوع ، الى جانب صحفه الساخرة ، عدة صحف أخرى ، كان طابع الجدد فيها غالبا على رسومها وموضوعاتها ، وعلى رأس هذه الصحف مجلة (التودد) والتودد « جريدة شهرية أدبية علمية تجارية تحت رئاسة جاك قطاوى بباريس ونظارة أبو نظارة » وقيمة الاشتراك فيها عشرة فرنكات عن سنة واحدة وستة عن نصف سنة ٠٠ وهي فى حجم الكتب العادية ، وتفصّل عنها مقدمتها افصاحا أبلغ من شرحنا ، فقد قالت فى العدد الأول :

« حمدا للمدير الكون الذى أناط نجاح الأمم بالمصارف ، وصاغ من العلم حلية بهية أدهشت كل تالذ وطارف ، وشيد منه أركاناً قوية كما شاء ، وأنزل أهله أسنى الدرجات وسماهم بالأشياء ، فهم مصابيح الأنام يستضاء بأفكارهم ويقطف بآرائهم لهم السيادة على مآعدهم ، ولم يختص بالفصاحة وتقرير الأخبار سواهم ، وهم المحتاج اليهم فى جميع الأحوال ، والى أقوالهم المرجع والمثال ، وما من أمة تقدمت وكثرت ثروتها وراجت متاجرها وزادت قوتها وتنعم بالها الا باقتدائها بأهل العلم ، وما من أمة خذلت وتضعفت الا باستبداد الرأى وسوء التدبير وحب الذات والاكتفاء بمشورة عدم الخبرة ، والغفلة جهل والجهل لا يهتدى صاحبه الى رشاد ولا يدرى فيظهره بالمداد ، ميقوت عند العامة ، منبوذ عند الخاصة ، لا يكاد يذكر حيا أو ميتا ، وكفى العلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به اذا نسب اليه ، وكفى الجهل ذما أن يتبرأ منه أهله ، وفى الأمثال السائرة « العالم حى ولو كان فى منازل الاموات ، والجاهل ميت ولو كان فى منازل الاحياء ، وصلاة وسلاما دائمين على جميع الأنبياء والمرسلين » ٠٠

« وبعد لما رأينا هلال الشرق بعد انحطاطه أخذنا فى الارتقاء الى برج الكمال الذى كان حالا فيه قيما مضى ، وتنهيت العقول فاستنضات بمشكاة المعارف ومصابيح الفنون نشرنا هاته

الورقيات على رؤوس الانام وسميها بالتودد املا بان تكون واسطة في الالة والوداد بين الامم ، وشبهنا ما طلع في سماء صحتها بالبدر المنير المناسبة ظهورها في الشهر مرة كظهور البدر ، وان نورها مستفاد من عقول الامم كما ان نور البدر الحقيقي مستفاد من نور الشمس ، وان كان نور البدر حسي (صحتها حسيا) ونورها معنوي (معنويا) ولم تستعمل الا على فنون ومعارف ومسائل علمية ومقالات أدبية وبعض من السياسة مما يلوح لنا من اللغات الأجنبية ، ونسأل المولى ان يعم نفعها كل مريد لاننا لم نقصد بها سوى بث الامن والراحة وتنوير العقول بالرغائب العلمية والآداب الدينية ، انه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ..

وتختلف التودد اختلافا عميقا مع مجلاته الاخرى ، ويتناول هذا الاختلاف السياسة والمنهج والشكل في معظم سنوات صدورها ، فهي سجل لنشاط دول الغرب والشرق وراوية لتاريخ الزعماء والامراء والملوك ، تفصل ذلك حتى تستغرق كل صفحاتها وقد لا نجد عن مصر شيئا لاعداد متتالية ..

وقد اقتصر المحرر في ذكر مصر على تاريخها القديم ، اذ نشر غصولا متصلة عن تاريخها وآثارها ، وعالج قصة بعض تلك الآثار في أكثر من عدد ، وقلما كان يعرض للنواحي السياسية المعاصرة وخاصة في السنوات الاولى ، وان زحرت مجلته بعد ذلك في رواية الحوادث المصرية ، ولم تشر الى تلك الحوادث في دقة وعناية الا حين كبر حجمها فبلغ حجم (أبو نظارة) وأصبحت في سيرة مجلاته معاونا أصيلا ومنافسا خطيرا ثم أضيف تغيير طفيف الى اسم الصحيفة ابتداء من السنة الرابعة فسميت (تودد أبي نظارة) ويتصدر صفحاتها الاولى قوله : « تودد أبي نظارة ، جريدة سياسية أدبية بالرسومات محلية » وقد بين اشتراكها وهو عشرة فراكات في السنة وعنوانها وما الى ذلك ، وقد أدخل عليها جديدا في هذا الفصل الممتع الذي لا يكاد يخلو منه عدد وهو (فكاهة العقل) وهو حديث باللغة العامية ، يشبه كثيرا ما كان ينشر في صحفه الاخرى الساخرة ، كما تتميز تلك السنة بأحصائية طريفة عن اليهود وتعدادهم في فلسطين ..

ومن الموضوعات السياسية التي عالجتها (التودد) حملتها على الانكليز للفظائع التي يرتكبونها في حربهم مع البوير ، وقد جاءت تلك الحملة تحت عنوان (البوير لهم رب يحبيهم ، ومن ظلم الانكليز ينجيهم) وقد بدأها بذكر سلطان تركيا وخديو مصر عباس الثاني بالاكبار والاجلال ، ثم دار بينه وبين «أبي خليل» حديث طويل ننقل منه بعض فقراته لتبين للقارى مدى التطور الذى أصاب (التودد) فيقول على لسان أبو خليل « طيب والابطال دول ونسوانهم وأولادهم لابد انهم البوير الاسود .. الله الله على وجوههم السامية وعيونهم السود .. لاشك أن البوير دول سكان قرية من قرى الترنسفال .. هجم عليها ليلا الجنرال كتشنر وعساكره الاندال ... وأخذوا الالهالى أسراء نساء ورجال » ..

فيرد عليه أبو نظارة قائلا : « نعم وهماو رايح يقتلهم بالرشاشة الجهنمية .. ولو أن من سلم سلاحه حرم قتله فى شرايع الانسانية » ثم يعقب أبو خليل « الانسانية ما لهاش اعتبار .. عند المستر شامبرلين الطعام وكتشنر الغدار .. وكلامك ده يا شيخنا العزيز .. رأيت فى جرائيل الانكليز .. ما أخبت وما أفحش الحصيل .. ولا البربر مايصلوش دى العماليل .. وهو حد فى الدنيا يقتل الاسرى ولا يرثى لحالهم .. ويدبح امامهم والديهم ونسأهم وأطفالهم ؟ .. دول الانكليز ذاقهم ببسخطوا على كتشنر وشامبرلين الى جلبوا لهم لعنة أمم الشرق والغرب .. بفعابلهم الذميمة فى الحرب » .. وهكذا أخذت (تودد أبى نظارة) تنافس فى أحيان صحيفته الاصيل (أبى نظارة) ، وكانت تنشر أيضا بعض الرسوم وصور الاشخاص ملونة ، بل أن التودد ومعها صحيفة (المنصف) وصحيفة (العالم الاسلامى) كانت جميعا معاونات صادقات (لأبى نظارة) حتى حللن مكان بعض أعدادها ، وقد استكملت التودد أو تودد أبى نظارة السنة الثانية عشرة ثم اختفت نهائيا بعد أن عاوت فى أداء رسالة صحيفتنا الكبير ..

المنصف

« المنصف » احدى صحف يعقوب بن صنوع التي نشرها في باريس وقد أصدرها في حجم « أبى نظارة » الكبير في سنة ١٨٩٩ وقد ظهر العدد الاول في ١٥ فبراير من تلك السنة مطبوعا على الحجر ، مكتوبا بخط اليد ، وهي كما يقول صاحبها « جريدة سياسية أدبية تجارية مديرها ومحررها الشيخ . ج . سانوا أبو نظارة المصري بباريس » وقد جعل اشتراكها عشرة فرنكات في السنة « ترسل الى مديرها بطوابع بوسنة أو بحالة تجارية » وقد رسم على رأسها رسومات فنية مما يرسم عادة على منابر الجوامع والمساجد ..

والمنصف رسالة وأهداف يحسن تسجيلها كما هي لتبين الاغراض التي انطوت تحت نشرها ، فقد وقع أبو نظارة على افتتاحية تضمنت ذلك كله وجاء فيها « أحمدك يا جميل الصنائع يا رفيع البدائع .. على فضلك الوافي .. وعونك الكافي .. أمرت بالعدل والانصاف .. وعلمت ما في القلوب من وفاق وخلاف .. بفضلك يا مولاي نهضت .. وبمعونتك يا الهى نشطت .. لأبدأ هذه الصحيفة .. بأراء جليلة شريفة .. اذ ليس الغرض من انشائها سوى الدفاع بكل صديق واقدام عن اخواني أبناء الشرق الكرام .. وتبيان حقوقهم .. وسوء معاملة الغير معهم ومع أمرائهم وملوكهم .. ومدح من نراه محبا لهم من الأمم الغريبة .. ومن يناضل عنهم في حومة الإنسانية .. ويحفظ حقوقهم وفي عهودهم .. لا سيما حقوق الأمة الإسلامية .. وحقوق خليفتها المعظم ذى الفعائل المرضية ومن الانصاف أيضا ذم من يجور عليهم ويظلمهم .. أو يسلب أموالهم ويستخلمهم .. أو يفور على بلادهم السعيدة .. ويصيحها بحلولة في ضيقة شديدة .. ويتسلطن عليهم بحجة حمايتهم .. أو تمدنهم ورفع درجاتهم .. وأرجو لقرنالى هذا أن يكون منصفاً لبنية .. من محبى الشرق وأعاديه .. ولا فائدة في كثرة التكرار .. والاشارة تنبى النباه والاخبار ..

وما أوضحتها آنفا فيه كفاية المعلوماتية . وان اتحفتموني يا قرائي
بآرائكم الصائبة ومقالاتكم البهية بشأن معاملة الغربيين مع
الشرقيين . . من قبح وملائع فلا بأس من المحبين . . حتى
اني أبذل الجهد في الدفاع . . عنهم في هذه النشرة وأجيب
القراء . . وأمل دوام هذا الشأن بصواب ومسرة واحسان ،
ولا فلاح . . الا من الفتاح . .

وحقا أدت المنصف رسالتها أحسن الاداء في هذه الفترة
القصيرة التي عاشتها ، أي في السنتين اللتين صدرت فيهما ،
وتميزت السنة الثانية من حياة (المنصف) بالتعرض
للشئون السياسية الصارخة ان صح التعبير ، وعاد الكاتب الى
حماسه الوطنية الملحوظة ، فجعل بعض الافتتاحيات حملات
متصلة على الانجليز وسياستهم في وادي النيل ، وله في هذا
مقال ممتع عنوانه (الشهر الاتي الانكليز . . تنجلي عن وطننا
العزیز) وقد شرح ذلك في الفاظ لايمكن أن ننشرها في مطبوع ،
بل لايمكن أن تحكى على لسان ؟! . .

واحتلت سيرة البوير وحربهم للانجليز مكانا ملحوظا من
صحيفة المنصف في سنة ١٩٠٠ وفيها من السماتة بالبريطانيين
شيء كثير ، وهو يربط دائما في التحدث عن البوير وتورثهم ،
بين كفاحهم وكفاحنا ، وقد حدثنا في ذلك حديثا ممتعا بعنوان
(حقا البوير جدعان . . أما الانكليز جديان) .

غير أنه حدثت فيه من فحشى القول ما يصعب علينا نشره ،
ويكفي أن نشير اليه في العنوان ، والعنوان يغني عن كل بيان .

العالم الاسلامى

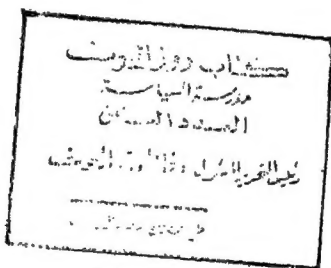
تختم بهذه الصحيفة تاريخ النشاط الصحفى ليعقوب بن صنوع ، وهى صحيفة تتميز بأشياء جديدة ، تتميز بلغتها الفرنسية التى انفردت بها ولم تشاركها فيها لغة من اللغات الأخرى ، وتتميز بورقها الضارب الى الحمرة ، وصورها الواضحة المعالم والأشخاص ..

هى صحيفة (العالم الاسلامى) لمديرها ومحررها الأول « شاعر الملك الشيخ . ج . سانوا أبو نظارة » ، وتقول فى رهوس أعددتها أنها صحيفة « أدبية تجارية ، صناعية مالية » وتشير الرسوم المنشورة دائما فى رهوسها الى أنها صحيفة العالم الاسلامى حقا ، فقد رسمت على جانبى اسمها قبابا ومآذن وأشخاصا باللباس العربى الأصيل ، وباللباس المصرى ، مما يعطى صورة عن أنها تعبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب ، وقد قررت عشرة فرنكات اشتراكا لها وعشرين فرنكا مع (أبو نظارة) وخمسة وعشرين فرنكا للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق ..

أما أهداف الجريدة فقد بينها صاحبها وهو يحدثنا عن مجموع أعداد « أبى نظارة » و « العالم الاسلامى » لسنة ١٩٠٧ اذ يقول « أهديك يا حضرة القارئ فائق احترامى .. وأرجوك قبول مجموع أعداد جريدة أبى نظارة ومجلة العالم الاسلامى ..

« ايش قولك يا عزيزى فى هذا الكراس الكبير .. ماهوش عال العال ومزين بأفخر التصاوير ؟ اتحفه بنظرة من أنظارك الجليلة .. ترى فيه مقالات جميلة .. كلها مدح وثناء فى جلالة مولانا السلطان .. حفظه وخرسه ونصره الرحمن .. وكذا ترانى أبجل علماء وشعراء الترك والفرس والعرب .. الى أقوالهم كلها طرب .. انما الأعداد دى وردت لك فى مواعيدها يا صاح .. واطلمت على ما حوته من الجمل والصور الملاح .. ورايتنى أقاوم الانجليز .. وأدافع بالباع والفراع عن حقوق وطننا العزيز .. وليل ونهار أرفع عينى الى السماء وأقول :

يا ربى انقذ مصرنا من مخالب المستر بول ٠٠ لان وادى النيل
 من الممالك العثمانية ٠٠ فكيف يتسلط عليه جيش الحكومة
 البريطانية ؟ ٠٠ واليوم كل سنة وانت طيب يا ابن الكرام ٠٠
 هذا هو حديث يعقوب بن صنوع عن صحيفتيه فى سنة
 ١٩٠٧ ، وهى من الصحف الباقية من صحفه الكثر ، غير
 أن مجلة (العالم الاسلامى) لم تعمر طويلا ، ولم يصدر منها
 فى سنتها الاولى الا ثمانية أعداد ، وفى سنتها الثانية لم يصدر
 صاحبها منها الا أربعة أعداد فقط ، ثم اختفت ولم يبق من
 صحفه الا (أبو نظارة) التى عاشت الى سنة ١٩١٠ ولم تقف
 عن الصدور الا بعد أن كاد أن يكون كفيف البصر ، وبعد أن
 عجزت صحته عن مداومة صدورها ، وثقل به المرض فامضى
 فى سريره نحو سنتين يجاهد فى سبيل الحياة من غير نتيجة
 حتى نزل به قضاء الله فى سنة ١٩١٢ ونعته الصحف ووكالات
 الانباء ٠٠٠





التمن ١٠ قروش

Bibliotheca Alexandrina



0647173

